الإمبراطور قسطنطين

الحـــــوارى الثالث عشـــــــــر

د.الشفيع الماحي احمد

فهرس المحتويات

المحتوى	رقم الصفحة
المقدمة	2
الباب الأول : اتجاهات النصارى العقدية قبل مجتمع نيقي	
الفصل الاول:الاتجاه التوحيدى	5
الفصل الثاني:الاتجاه التأليهي	32
الباب الثاني: الإمباطور قسطنطين	
الفصل الاول:قسطنطين :الفم المتكلم بعظائم	49
الفصل الثاني:عقيدة مجمع نيقيه	66
الفصل الثالث:ترسيخ العقيدة النيقية	88
الباب الثالث:النتائج	
الفصل الاول:دين جديد	106
الفصل الثاني:العداوة والبغضاء	121

عن ابي هريرة ،ان رسول الله ﷺ قال:
من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ،لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ،لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً.

صحيح مسلم – كتاب العلم – حديث رقم (2674)

مقدمة

ليس هذا كتاب وكما يبدو من عنوانه عن الإمبراطور قسطنطين ،ولا يشير إلى سيرته وتاريخه لا من قريب ولا من بعيد .وإنما هو كتاب يبحث وبشئ من الإستفاضة والتفصيل عما سنه للناس إبان ذروة تألقه وعنفوان قوته من دين ومعتقد تجاوز في نتائجه الخطيرة وعواقبه الوخيمة زمانه .وأمتدت آثاره إلى زماننا الحاضر، وقد تمتد لفترة طويلة قادمة في مستقبل الزمان.

وذلك لأن العاهل الروماني قد عمل بكل ما أوتى من سلطة وتسلط على الناس.ومستعيناً بكل الوسائل الممكنة والمتوفرة لديه على فرض عقيدة التثليث التي كان المعتقدون بها يمثلون الإقلية بين رعيته ذات الأغلبية الموحدة بالله تعالى ،لتقف على النقيض تماماً من عقيدة التوحيد.ولتعمل في الوقت نفسه على إزاحتها من الوجود.

وكان الزمان مواتياً له.والخذلان لا التوفيق حليفه. فأستطاع في فترة زمانية مقدرة على طرح دين لم تعهد له البشرية مثيلاً.وفيه من الأصول العقدية ما لا يتصور عاقل وجودها.ناهيك عن الأيمان بها والعمل والسلوك على ضوءها.

إن ما قدمه الإمبراطور قسطنطين من دين لا يرتكز في بناءه العقدي على الأنجيل وعمل الحواريين،بل على شخصية المسيح عليه السلام التأريخية وحدها، فبسطها للناس كأساس للأيمان ،وأقام الدين كله على الأعتقاد بشخصيته وحدها، لا على رسالته الألهية ،ولا على الوحي الذي أنزله الله تعالى عليه ،كما هو الحال في سائر الرسالات السماوية.

وبدلاً من ان تتحول شخصية المسيح في هذا الدين من عامل تألف وأنسجام بين المؤمنين به، جرت عليهم من الخلاف والشقاق والتنافر ،ما أورثهم العداوة والبغضاء والأحن والضغائن.

وكل من تنصر أو أعتقد بهذا الدين الجديد فهو مدين له في ايمانه وعقيدته .وكل ضال وحائد عن طريق الحق فبفضله .وله وكما ورد في الحديث النبوي من الأثم مثل آثامهما .ولا ينقص من آثاهم شيئاً.

وتهدف الصفحات التالية من فصول هذا الكتاب إلى الكشف عن نواحي الجدة في هذا الدين الذي لم يكن للبشرية سابق عهد به ،وهي وحدها التي بوأت الأمبراطور قسطنطين مكانه الطبيعي إلى جانب الحواريين ،كحواري جديد يضاف إلى حواريين عيسى عليه السلام الأثنى عشر واصحاب الفضل في التبشير بدينه بين الناس كما فعل هو أيضاً ،فاستأهل مثلهم لقب الحواري الثالث عشر.

الباب الأول
أتجاهات النصارى العقدية قبل مجمع نيقية

الفصل الأول
الأتجاه التوحيدي

ترجع صفة النبوة في أدق معانيها ،وأقوها تعبيراً وابعدها نفاذاً على اعلام الله تعالى وامره إلى من يصطفيه ويختاره من عياده بمخاطبته ،أو بواسطة ملاك قائلاً له:

- أنت رسولي

وبهذه العبارة ترتفع منزلة المصطفى المختار ويعلو قدره ويسمو مقامه على غيره من البشر،ويحظى فوق ذلك وعلى وجه الاستحقاق بالإجلال والتعظيم والتشريف من الناس ،وذلك لتفضيل الله من جهة ،و لتعلق نبوته به تعالى من جهة أخرى.

غير أن النبي المختار لا يتبوا تلك المنزلة الرفيعة السامية،إلا إذا قبل الرسالة وأحاط بها علماً ومعرفة،وتكفل بحملها وأداءها كما هي مرادة الله تعالى ووفقاً لأرشاده وتوجيهه عندئذ يطلق عليه حصراً وتقييداً اسم الرسول، ليفيد الاسم في دلالته الإعلامية أرسال الله تعالى له، كما يفيد ويكتسب في الوقت نفسه أن هناك مرسل ومرسل إليه ،وفي هذا وذات تأكيد على أنه وحده المبعوث من عند الله .

وتقتضي الرسالة بطبيعة الحال ما يدعو المرسل إليه إلى التصديق والاعتراف ، وذلك لا يتأتى الا بأظهار المعجز الخارق للعوائد البشرية ،مقرونة بالتحدي مع عدم المعارضة لأمر يرجع في غايته ومنتهاه إلى المبعوث إليه لا للرسول بوصفه رسولاً ، أعني ليس بغرض تصديق الإدعاء والدعوة بل للتصديق والاعتراف بذات الله تعالى.

أما الرسالة نفسها فهي وساطة بين الله تعالى وبين المرسل إليه ،و تنحو على الدوام في فاعليتها المجردة للقيام بدور الشفاعة ،أو التوسط بين طرفين متباعدين ومختلفين في طبيعتهما ومستقلين في الزمان والمكان. وهي لا تخرج في كل الأحوال عن كونها وسيلة لغاية عليها تتوقف العلاقة، وشرط لازم لتحقيق منفعة مقصودة تعود على المرسل إليه ، أويستحيل نوالها أو الحصول عليها بدونها.

ومرد ما مضى ذكره إلى ان الرسول مبلِّغ أو معبَّر وناقل لما في الرسالة من معاني إلى ألفاظ وعبارات مؤلفة ، أي إلى أخبار لا يملك سامعها الا السكوت عندها ، وذلك لحدوث الفائدة والمنفعة،وهو تمام معنى العلم أو الكلام المخصوص الذي يصل إلى أقصى مقصوده بفهم المرسل إليه له، وحصول معناه في نفسه ، وتصوره وإدراكه له.بحيث ينتهي إلى التصريح المباشر بأنه فهمه كما هو عليه بالفعل، فهماً مطابقاً لمحتواه ومضمونه العلمي والمعرفي. وهو المعنى المرادف للعلم اليقيني.

أما مزية الرسالة الكبرى وأمتيازها الفريد فيكمن لا في استجابة المرسل إليه لها ،ولا في استعداده الطبيعي لتحصيلها ، بل في قابليتها الذاتية وقدرتها الموجبة لاستدعاءه هو لمواجهتها ،وترتيب إرادته الحرة لقبولها والأخذ بها عن رضا وقناعة نابعة من داخله ،وذلك حتى تكتمل إرادة القبول والأخذ من ناحية ، وحتى يتحقق من ناحية أخرى التوجه العقلي والقلبي السليم للأنفعال بها، بكل مافي التوجه من حسم وتصميم.

وبهذا تجري الرسالة مجرى الدعوة الخالصة ،والتي تفترض مقدماً من المدعو إليها الوقوف عندها أو منها ، أما موقفاً إيجابياً بالأعتراف والتصديق والقبول، أو موقفاً

سلبياً بالإنكار والتكذيب والرفض ، وذلك لما في الدعوة بحكم طبيعتها الاستدعائية من ترغيب على الأخذ والقبول ،ولما تتضمنه من حرص وإرادة في الاستجابة لها.

وبالتساوق مع تلك المعاني مجتمعة أشتق للرسول أسماً أخص من اسم المرسل المبعوث هو اسم الداعية ،أي الداعي والمرغب الآخرين للرسالة .بكلام والفاظ مفهومة يدفعهم دفعاً للأتجاه نحوها ، أتجاهاً مفعماً بالشعور الذاتي وصادر عن الإرادة الحرة،وبلا أكراه أو أجبار.

وأول ما يدعو إليه كل رسول مبعوث من عند الله تعالى لخاصة قومه أو لعامة الناس ،هو توحيد الله ،والأعتراف والإقرار له بالألوهية والتآله، او بمعنى أخر اعتقاد وحدانية الله تعالى.وتوحيد الله يرتكز على قاعدتين أساسيتين من قواعد الاعتقاد:

_ أولهما علم ومعرفة يقينية بأن الله تعالى هو كما أخبر عن ذاته العلية.

- وثانيهما إقرار واعتراف يثبت لله ما أثبته لنفسه وينفي ما نفاه عن نفسه في آن معاً، أو بعبارة أخرى إثبات في نفي ،ونفي في إثبات.

وأرتكازاً على ما مضى ذكره ،فمن الطبيعي أن دعوة عيسى عليه السلام لخاصة قومه مثلها مثل سائر الدعوات السماوية دعوة مطلقة لتوحيد الله ووحدانيته ،وذلك في أبعاد التوحيد الثلاثة:

- توحيد لله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله
- وتوحيد في العبادة ،فلا يعبد إلا هو وحده
- وتوحيد في الخلق والإيجاد ،فلا خالق ولا موجد سواه.

ولاجل ذلك أنتشر بين كل المؤمنين بعيسى عليه السلام رسولاً ، أقرار واعتراف ،بأن الله تعالى هو كما أخبر عنه عليه السلام عن طريق الكلام والخبر ، في أفادته المعرفية الدالة على معنى التمييز والتعيين ،فسمى نفسه (الله) ، كاسم علم مفرد لاجمع فيه، وهو خاص به لا يشاركه فيه غيره لا حقيقة ولا مجاز، ولا يضاف الاسم في خصوصيته تلك إلى شئ سوى ذاته العلية ،وكل اسماءه وصفاته تعرّف به وتنسب إليه.

وكان لاسم الله تعالى عند مبعث عيسى عليه السلام ثلاثة مترادفات تتردد على ألسنة المؤمنين هي:

الوهيم ويهوه وادوناي

فالوهيم صفة لله تعالى في صيغة الجمع للآله الواحد ، أي الالهة ،ثم تحولت صيغة الجمع هذه إلى علامة للتعظيم في نفس المؤمن ،وينادي به عادة في الملمات والشدائد.

فمما يروي عن عيسى عليه السلام أنه لما كان مسافراً إلى الناصرة بالبحر ، حدث نوء عظيم ،أشرف المركب من قوته على الغرق واحاط بالركاب خوف وهلع ، عندها نهض عليه السلام ورفع يديه إلى السماء قائلاً(برنابا21):

- يالوهيم الصباؤوت ارحم عبادك

يعني يا خالق النجوم والكواكب

أما يهوه بمعنى الرب فهو اسم لا يستعمل الا مفرداً وهو مشتق من فعل المضارع هيه أو هو ، وترجمته الحرفية (كما كان في الأصل) أي الموجود أو واجب الوجود الأزلي الذي يستلزم بالضرورة نفي مطلق لاي وجود سوى وجوده هو، وفي الوقت نفسه إثبات مجرد لوجود ذاته المتعالية .

فيهوه اذن اسم يطلق مباشرة على الذات الالهية المنفردة بالاحدية،والوجود الذاتي الذي يتلاشى فيه وعنده كل ما في الوجود ،مما يجعل الاسم للألله المعبود الواحد الذي يتوجه إليه المؤمنين داعين بألفاظ وتعابير واضحة.

وكان اسم يهوه اسماً موقراً غاية التوقير إلى حد لا يجرؤ الواحد منهم او يتجاسر على ترديده أو التفوه به في كل وحين، ليس هذا فحسب بل ان الواحد من كتاب التوراة لا يكتبه الا وهو جالس على ركبتيه ،وفي طهارة شاملة للجسم والثياب ،وبقلم جديد ،وحبر جديد ،ولا يكتبه الا وهو في حالة رهبة وخشوع ، وذلك لاعتقادهم أنه اسم الله الأعظم. الذي لا ينبغي النطق به إلا تبعاً لضوابط خاصة وفي أماكن معينة.

أما عند قراءتهم له فقد اعتادوا على تجاوزه ،فلا يذكرونه ،ويستعيضون عنه باسم ادوناي ،وهو الاسم الذي يستخدمونه عادة في مخاطبة الله مباشرة ، وبكل تواضع وخشوع ومعناه السيد أو الرب ، وهو ايضاً الاسم الذي دعا به عيسى عليه السلام حين حاول الجند الرومان القبض عليه، فنادى قائلاً:

" ادوناي صبأوت

وقد اجمل عيسى عليه السلام وفي مستهل دعوته لقومه ما يجب عليهم معرفته عن الله تعالى واحداً واحداً ،فقال لهم (برنابا12):

"ان الله صلاح بدونه لا صلاح ،أن الله موجود بدونه لا وجود ،ان الله حياة بدونه لا حياة ،وهو عظيم حتى انه يملأ الجميع ،وهو في كل مكان ،هو وحده لا ند له، لا بداية له ولا نهاية، ولكنه جعل لكل شئ بداية ،وسيجعل لكل شئ نهاية، لا اب له ولا أم، لا أبناء ولا أخوة،ولا عشراء.

ولما كان ليس لله جسم فهو لا يأكل ولا ينام ولا يموت ولا يمشي ولا يتحرك ، ولكنه يدوم إلى الأبد ،بدون شبيه بشري .لأنه غير ذي جسد ،وغير مركب مادي وابسط البسائط وهو جواد لا يحب الا الجود،وهو مقسط ،إذا قاضى أوصفح فلا مرد، وبالاختصار أقول:

-أنه لا يمكنك أن تراه وتعرفه على الأرض تمام المعرفة ولكنك ستراه في مملكته إلى الأبد، حيث يكون قوام سعادتنا ومجدنا".

ثم توسع عليه السلام فيما أجمله عن ذات الله تعالى اسماء وصفات ،فأنتهى إلى (برنابا13):

أن الله تعالى هو الموجود لنفسه ،ليس له بداية ولن تكون له نهاية ،و لا يحتويه زمان ،أي هو أزلي وأبدي ،والعبارة المستوفية لتحديد هويته هي:

"ان الله روح غير محدد"

ومقصوده ان ذات الله تعالى جمعت بين كونها ظاهرة وغائبة في وقت واحد، وهو معنى الوجود المطلق الذي لا يصح فيه عدم ولا يشابهه عدم، إذ لا غيب له ولا حضور ،بل هو غيب يليق به، وظهور يليق به، وليس مطلوباً من أحد تعقل هذا المعنى.

وأشار عليه السلام إلى ذلك المعنى في قوله (برنابا15):

"أن الله لا يدركه قياس إلى حد إني أرتجف من وصفه ،أن الكون لصغير كحبة رمل من حبوب الرمل لمل كل السموات والجنة، بل اكثر ، أنظروا ،والله اعظم من ذلك بمقدار ما بلزم ،إذا كان هناك نسبة بين الله والإنسان الذي ليس سوى كتلة صغيرة من طين واقفة على الأرض".

والله الذي لا تسعه السموات والأرض هو بالضرورة محجوب عن البشر، ولا يمكن لأحد الإحاطة به علماً ،ولكن سيعرف وكما قال عليه السلام (برنابا16):

" متى صرنا في الجنة .كما يعرف هنا البحر من قطرة ماء"

وكلما ما مضى ذكره هو تنزيه لله تعالى في ذاته واسماءه ليس بالألفاظ والعبارات ،بل في المعاني.لان معانيها لا تنطبق ولا تصح إلا عليه وحده،ولا توهم ما يتعالى الله عنه،لينفرد وحده من بعد هذا وذاك بما يستحقه لنفسه عن أصالة وتعالياً.لا أن المخلوق شابهه أو ماثله في الاسماء والصفات.

كما أنفرد الله تعالى من جهة اخرى بالألوهية والتأله ، فلا إله سواه ،ولا معبود غيره ،وهو في تألهه واحد واحد،لا ند ولا شريك ،والمراد بالتوحد هنا ،التوحد في الذات بمعنى أنه لا يقبل التركيب ولا التجزئي والإنقسام ،لا في ذاته ولا في صفاته وكلها مبالغة في الوحدة بلا مثيل ولا نظير.

وصفات الله تعالى هي نفسها التي عند غيره من الموحدين تعرّف بأحوال الذات الألهية، ودالة عليها دلالة الإفادة،وهي كما يروي برنابا عن عيسى عليه السلام كثيرة ، منها ماهو خاص بألوهيته كالإرادة والكلام ،ومنها ماهو خاص بربوبيته كالعلم والقدرة،ومنها تتفرع صفات أخرى مثل:

- الصالح ،بمعنى:المستقيم الحال في نفسه ،فقال عليه السلام في رده على من دعاه صالحاً (مرقس:10: 17 -18):

" لماذا تدعونني صالحاً ، ليس أحد صالحاً الا واحد وهو الله"

- ومنها :النور الذي يضئ بنوره كل الأشياء فيجعلها ساطعة كالشمس.

- ومنها الطاهر النقي ، والحليم ،بعيد النظر ، والقيوم الذي فرض الخلود على نفسه.

- ومنها الغني الذي ليس له حاجة ،فيقول عليه السلام (برنابا30):

" وكل من يعمل لغاية يجد فيها غنى ،لذلك أقول لكم أن الله لما كان في الحقيقة كاملاً لم يكن في حاجة إلى غنى ،لان الغني عنده نفسه".

- ومنها الخالق الذي خلق كل شئ بكلمة واحدة من العدم أي برأ كل شئ بكلمة كن، وهو في الوقت نفسه مالك الأشياء جميعها ،وكل ماهو خارج عنه مخلوق ومربوب له.

- ومنها المشيئة المتعلقة بالخلق والتكوين ،والتابعة للحكمة والعدالة ومصلحة المخلوقات ،وهي التي قال عنها عليه السلام، (برنابا129):

" ان الطعام الحقيقي هو عمل مشيئة الله"

وقال أيضاً لحواريه:(برنابا 101):

" أنظروا إلى العصفور الدوري والطيورالأخر ى التي لا تسقط منها ريشة بدون إرادة الله"

- ومنها الرب، أي المالك والمصلح والسيد والمعبود ،فقال عليه السلام (مرقس 12: 29-30):

" أولى الوصايا جميعاً هي : اسمع يا أسرائيل الرب ألهنا رب واحد."

وكل ما مضى ذكره فيه تصديق بالله تعالى واحداً واحداً ،لا شريك له، وهو تصديق بلغ من القوة والرفعة والسمو يحبث يخرج المصدق من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ،وبالإيمان ينتسب إلى الله تعالى نسبة أخص من نسبته إليه بالخلق والإيجاد ،وهي التي تؤسس عليها علاقة ورابطة بين الأثنين ،تقوم في الأصل على أتباعه والعمل بكل ما يرد عليه منه، والتسليم له طواعية،وتفويض اموره كلها إليه وحده، فيستحق بأتباعه وتسليمه اسم المؤمن المسلم.

وعن هذا الإيمان تحدث عليه السلام لحواريه قائلاً (برنابا140):

" أن الايمان لا يخطئ ،لأن أساسه الله وحكمته ،صدقني ،انه يالايمان يخلص كل مختاري الله ،ومن المؤكد أنه بدون ايمان لا يمكن لأحد ان يرضى الله."

وقال لهم أيضاً(متى21: 21-22):

" الحق اقول لكم ان كان لكم ايمان ولا تشكون ،فأنكم تعملون لا مثل ما عملت بالنبتة وحسب ،بل كنتم تقولون لهذا الجيل أنقلع وأنطرح في البحر ،فإن ذلك يحدث ،وكل ماتطلبون في الصلاة بايمان تنالونه"

أما عن حالة عدم الايمان ،أي الكفر فيقول في وصفه لها(برنابا65):

إن عبادة الأصنام هي اعظم خطيئة ،لأنها تجرد الإنسان بالمرة من الإيمان ،فتجرده من الله ،بحيث لا تكون له محبة روحية"

وهكذا تبوأ الله تعالى بذاته العلية في معتقد عيسى عليه السلام ،وفي أعتقاد من آمن به، المركز الأول بوصفه الآله الواحد الأحد في الوجود بأسره ،والمتفرد بالخلق والإيجاد ، والمهيمن على كل موجود ، والمصدر الوحيد لكل حركات المخلوقات وسكناتهم.

وبهذا الأعتقاد أنزلت كل الألهة بمسمياتها الكثيرة منزلة الباطل ،وكنقيض مباشر للحق ،ليقترن الله تعالى بمفهوم الحق،ولترتبط كل الألهة الأخرى بمفهوم الباطل.

اما عيسى عليه السلام في ذلك المعتقد التوحيدي فهو إنسان وعبدالله، وقد تنبأ بعبوديته تلك أنبياء العهد القديم ،فقال عنه أشعياء(متى 18:12):

" هاهو فتاي الذي أخترته"

والفتى في دلالته اللغوية القديمة يطلق وبالتطابق على العبد والخادم معاً ، اي من يعمل للآخرين ،فهو المملوك الذي هو رهن إشارة مالكه ،يدور معه حيث دار وشاء.

وأحتفظ الاسم بالمعنى نفسه عند مبعثه عليه السلام ،فأطلق عليه اسم العبد أبلغ الاسماء ،ووصف بالعبودية أشرف الصفات،وتكرر هذا الاسم في نسبته الصريحة لله تعالى في أكثرمن موضع في سفر أعمال الرسل ،نذكر منها(13:3):

" أن اله إبراهيم واسحاق ويعقوب أله آبائنا قد مجد فتاه يسوع:

وجاء أيضاً(27:4):

" وقد تحققت هذه الكلمات فعلاً ، إذ تحالف هيردوس وبيلاطس البنطي والوثنيون وأسباط اسرائيل لمقاومة فتاك القدوس يسوع الذي جعلته مسيحاً"

وعلى الرغم من عبودية عيسى عليه السلام المطلقة إلا أن الله تعالى أوجده بطريقة وكيفية ليست معهودة ولا مألوفة في عباد الله، وذلك لما تمثل لمريم عليها السلام الملاك جبريل ،فكان واسطة بينهما،فقال تعالى (آل عمران45):

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ﴾.

وحكى الله تعالى بعد خلقه قائلاً :(النساء171):

﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾.

وفي نسبة عيسى للكملة دون غيرها من معاني الخلق والإيجاد إشارة إلى أنه خلق بمجرد أمر التكوين الإلهي المعبر عنه بكلمة كن ،وذلك لأنه لم يخلق من تراب،بل خلق بقوله كن،وآدم عليه السلام بقى مخلوقاً من تراب فترة من الزمان ، ثم نفخ فيه الروح ،وقال له كن فكان.

اما عيسى عليه السلام فقد خلق ابتداء بقوله تعالى كن فكان، في دلالة مباشرة على خصوصية في الخلق والإيجاد ،وفي الوقت نفسه للتأكيد على أن الكلمة هنا خاصة ومخالفة للمعتاد في تكوين الأجنة ، أي بغير الأسباب الظاهرة في إيجاد المخلوقات. فسائر بني آدم خلقوا بالسنة المعهودة ،والعادة الجارية في إيجادهم ،وخلق عيسى عليه السلام،فخرق هذه العادة الجارية ،لان الله أوجده بكلمته ، ولأجل هذا سمي بكلمة الله دون غيره من المخلوقات .

ولما بلغ عليه السلام الثلاثين من عمره بعثه الله تعالى إلى خاصة قومه رسولاً ونبياً ،فخاطبهم قائلاً (يوحنا 7 : 14 – 16):

ليس تعليمي من عندي ،بل من عند من أرسلني ومن أراد أن يعمل مشيئة الله يعرف ما إذا كان تعليمي من عند الله، او أنني أتكلم من عندي ،من يتكلم من عنده يطلب المجد لنفسه ، أما الذي يطلب المجد لمن أرسله فهو صادق لا اثم فيه."

وأيده الله تعالى حين أرسله مثل سائر الرسل بالآيات الخارقة لعوائد العادات.فجاء في اعمال الرسل (2:52):

" فيا بنى اسرائيل.اسمعوا هذا الكلام: إن يسوع الناصري رجل أيده الله بمعجزات وعجائب وعلامات اجراها على يده كما تعلمون."

وبهذه الآيات الدالة على صدقة وصدق ما جاءهم به من عند الله استقر عندهم بصفة النبي المبعوث، فروى يوحنا واصفاً موقف قومه من دعوته قائلاً(4:7):

"ولما سمع الحاضرون هذا الكلام قال بعضهم هذا هو النبي حقاً."

وحكى أيضاً قائلاً (19:24):

"... ماحدث ليسوع الناصري الذي كان نبياً مقتدراً في الفعل والقول امام الشعب كله."

والنبي المرسل من عند الله ،والمقبول عندهم هو في عرف القوم بشراً ورسولاً ،يتكلم أو يكتب عما يجول في خاطره، من قوة خارجة عنه،هي قوة الله أو وحيه المنزل من عنده على فم نبيه المرسل، وفيه يكشف لهم الأخبار الحقيقية المبلغة من عند الله ومقاصده ،وعن الأحداث المستقبلية ،وعن الامم والشعوب ،وأقدار الناس ومصائرهم.

غير أن نبوة عيسى عليه السلام ورسالته كانت قاصرة على بني قومه،ومقصورة فيهم، ولا تمتد بأي حال من الأحوال لتطال غيرهم،وحرص هو من جانبه ،وحين أَنبى بالفعل وأمر بإبلاغ الرسالة على تبيان تلك الحقيقة البديهية ،فقال (برنابا،ص4):

"أقامني الله نبياً على بيت اسرائيل لاجل صحة الضعفاء واصلاح الخطاة".

وحين سئل ذات مرة عن محبة الله ،أجاب من ضمن ما أجاب قائلاً (برنابا،ص84):

"كل كلمة من كلماتي صادقة لأنها ليست مني بل من الله الذي أرسلني إلى بيت اسرائيل"

ومغزى استخدام عيسى عليه السلام لكلمة بيت دون غيرها ،يعود إلى نسبتهم إلى يعقوب (اسرائيل) عليه السلام ، هي لهم كالمكان الذي يضمهم لوحدهم، ويأويهم ويجمع شملهم ،ويرجعون إليه في كل وقت وحين ، ويقيم الحدود الفاصلة بينهم وبين غيرهم من الناس.

وكان عيسى عليه السلام لا يخاطب في جولاته التبشيرية إلا التجمعات اليهودية وحدها ،فيحكى عنه متى قائلاَ(9:35):

" وأخذ يسوع يتنقل في المدن والقرى كلها يعلم في مجامع اليهود وينادي ببشارة الملكوت."

وكانت هذه الحقيقة دون غيرها من أكثر الحقائق التي وضعها نصب أعين حواريه، ووضعها كالعلم الهادي أمامهم ،وذلك قبل انطلاقهم للتبشير بين أسباط بني اسرائيل الاثني عشر. فقال لهم بوضوح تام(متى 10: 5-8):

" لا تسلكوا طريقاً إلى الأمم ،ولا تدخلوا مدينة سامرية ،بل أذهبوا بالاحرى إلى الخراف الضالة إلى بيت اسرائيل ،وفيما أنتم ذاهبون بشروا قائلين قد أقترب ملكوت السموات"

نهى عيسى عليه السلام حواييه نهياً أفضى من حدته وبلغ من صراحته درجة الزجر الصريح بالا يبشروا برسالته ،ليس فقط أولئك المنعوتون عندهم بالأجانب والغرباء ،أي الأمم أو الأمميين.من غير العبرانيين ،بل ايضاً وبالقوة نفسها أقرب الناس إليهم ، وعلى وجه أخص السامريين ،لكونهم خليط غير متجانس في الدم والجنس،مع ايمانهم بالتوراة وبموسى عليه السلام رسولاً ونبياً.

إن وصية عيسى عليه السلام كاشفة من جهة على شدة أيثاره قومه بالرسالة والنبوة، وتفضيلهم ببعثته عمن سواهم ،ومانعة للحواريين من جهة اخرى منعاً يشبه التحريم القاطع من التبشير في غيرهم ،لئلا تضيع جهودهم سدى، وتستنفد قواهم على من لا تعننهم النبوة في شئ .ولا يملكون القابلية والاستعداد للانفعال بها.

وفي مناسبة من المناسبات جسّد لهم تلك المعاني في صورة حسية ينفر منها ذوو النفوس الطيبة، لتكون داعية وباعثة لهم على الابتعاد أكثر وأكثر من هؤلاء واولئك ،فقال لهم(متى6:7):

"لا تعطوا ماهو مقدس للكلاب ،ولا تطرحوا جواهركم أمام الخنازير لكي لا تدوسها بأرجلها وتنقلب عليكم وتمزقكم".

أي انه من غير المعقول ان يوهب اشرف شئ وأعظمه بركة في الدنيا للكلاب انجس الحيوانات ،وكذلك من غير اللائق أن ترمى بالجواهر أثمن المعادن وأنفسها وأعلاها قيمة تحت أقدام الخنازير أخس الحيوانات قاطبة.

فعلى الحواريين إذن الا يعهدوا بأقواله عليه السلام إلى أمم وشعوب يشبهون في نجاستهم وخبث اعتقاداتهم الكلاب والخنازير، ومن العبث التبشير بأمور غاية في القداسة والقدسية بين من لا يوفيها حقها من الاحترام والتقدير، إذ كل ما يفعلون بها ان يلقونها أرضاً ويطئونها بأرجلهم تماماً كما تفعل الخنازير إذا طرحت الجواهر تحت أقدامها فتدوسها غير عابئة بها.

أرخ القرآن الكريم لتلك الحقيقة البارزة في نبؤة عيسى عليه السلام والتي كانت على الدوام موضوعة نصب عينيه وشغله الشاغل ،في مناسبتين مختلفتين ،فقال تعالى في الأولى حاكياً عنه(آل عمران 48).

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

وقال تعالى في الثانية منها وعلى لسانه عند مخاطبته لقومه (الصف 158).

﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

وكما هو مبين بنفسه فقد استخدم القرآن الكريم في كلتا الحالتين آداة (إلى) التي وضعت حداً لنهاية نبوته.وذلك بتعيينها وتخصيصها فقط على بني اسرائيل ،فكأنها بتحديدها هذا قد نصبت حاجزاً وفاصلاً بينهم وبين غيرهم من الناس.وبالنص على بني اسرائيل بالاسم اشارت صراحة إلى اقصى حد يمكن لنبوته ورسالته بلوغه والوصول إليه،وذلك كي يقف الاسم مانعاً وصارفاً عنه غيره من الناس.

وعلى أي حال فقد بُعث عيسى عليه السلام في آخر سلسلة الانبياء المبعوثين للناس.ليحتل ببعثته تلك نهاية دورة كاملة من عمر النبوة،كانت النبوة فيها قاصرة على اقوام بعينهم ،وليشكل هو بشخصيته الفريدة حداً فاصلاً بين زمانين من عمر النبوة، زمان سابق على مبعثه ،وزمان تال عليه ،مما جعل رسالته محققة لأمرين متتالين.

-هدف قريب

- وغاية بعيدة.

أما هدف الرسالة القريب فهو احياء رسالة أصيلة في قومه،ومن هنا كانت النبوة امتداداً للنبوة فيهم،وبالتأكيد رسالة موسى عليه السلام وشريعة التوراة.

وقد اشار عليه السلام إلى ذلك كشئ بديهي لا يجادل عليه احد. فقال لحواريه (متى:17-18).

:لا تظنوا أني جئت لالغى الشريعة أو الأنبياء ، ما جئت لالغى بل لأكمل ، فالحق أقول لكم إلى أن تزول الأرض والسماء لن يزول حرفاً أو نقطة من الشريعة حتى يتم كل شئ".

وقال في أحد ردوده الكثيرة على اسئلة وأستفسارات الناس من حوله (برنابا:ص59).

"أتظنون أني جئت لأبطل الشريعة والأنبياء ،الحق أقول لكم لعمر الله إني لم آت لأبطلها ولكن لأحفظها،لأن كل نبي حفظ شريعة الله. وكل ما تكلم الله به على لسان الانبياء الآخرين، لعمر الله الذي نفسي في حضرته لا يمكن أن يكون مرضياً لله من يخالف أقل وصاياه."

أكد عيسى عليه السلام بأقواله تلك بما يفيد مباشرة أنه لم يأت بدين جديد يخالف دين موسى عليه السلام،ولا شريعة جديدة غير شريعة التوارة ،كما لم يرسل لينقض الوحي الموسوي، ، أو إبطال التوراة بل ارسل خصيصاً ليكمل ناقصها ويقوّم ما اعوج منها، ويفسر ويشرح ما غمض من معانيها بعوامل الزمان.

وفوق كل ذلك فقد تقيد عليه السلام في عبادته الشخصية بشريعة موسى عليه السلام، وحافظ كأي عبراني تابع لموسى والتوراة علىالوصايا العشرة ،ووقر السبت ،وأغتسل من الجنابة،ودعا الله بصدق وحرارة،وكانت قبلته في الصلاة إلى بيت المقدس ،وكان يدخل الهيكل كسائر العباد ليصلي ويتعبد فيه.

وما تبقى من اقواله الشفهية عن توراة موسى عليه السلام ،ويعتبر بحق إضافة تفرد بها عيسى عليه السلام ونسبت إليه نسبة ذاتية، وغدت فيما بعد من خصوصيات الأنجيل،ولا تأخذ التشريع وصفته، فقد دارت في مجملها حول شرح أحكام التوراة شرحاً

يعطيها بعداً قلبياً يكشف عن المعانى المتوراية في ظاهرها ،وهي التي اصطلح عليها بروح الشريعة، إذ استحالت الشريعة عند مبعثه إلى نصوص جامدة لا حياة فيها،وتمسك الناس بشعائر وطقوس فارغة من أي معنى تعبدي.

لخص القرآن مجمل أقوال عيسى عليه السلام لبني اسرائيل حول المعاني الكامنة في أحكام الله تعالى ، ومواقفه المتعددة في الالتزام الصارم بشريعة موسى عليه السلام ،فقال تعالى على لسانه (الصف6):

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾.

وحكى الحق عز وجل وبما يشبه التاريخ لمجمل خطابه لقومه قائلاً (المائدة48):

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

إن كلمة مصدق والمرتبطة دوماً بالتوراة تكاد تجمل بدقة وعناية نبوة عيسى عليه السلام لقومه. وهي التصديق بها تصديقاً مطلقاً ،حيث حكم عليها ومن الناحية اللغوية البحتة بالثبوت والإثبات ،وثبوته اثبات يتضمن بالضرورة الإقرار بها كرسالة ومنهج ربانئ ،أي الايمان بها على النحو الذي أنزلت عليه، وذلك لأنه بإقراره واعترافه قد صدق بها تصديقاً بلغ حد اليقين ، وذلك تمام معنى الاعتقاد.

أما سعيه الدؤوب ومجاهداته الكثيرة لإثبات ايمانه واعتقاده كتحليله لبعض ماكان محرماً عليهم في شريعة موسى عليه السلام أو بيانه وشرحه لبعض ما كان مدار لاختلافهم الشديد ،فهو تحقيق للرسالة ،والرجوع بالناس إلى حقيقة الشريعة بلا تشويه أو تحريف ،والوقوف عندها أتباعاً وانقياداً ،مما يدل على ان كل محاولته هي في جوهرها مبالغة في اثبات الرسالة الموسوية.

وأما غاية نبوة عيسى عليه السلام فهي تبشير وبشارة بمبعث الرسول الخاتم، والرسالة الخاتمة لسائر الرسالات السماوية ،ومن هنا حمل الوحي المنزل عليه اسم الانجيل ،أي الأخبار أو الاعلان عن أمر عظيم ووافر الفائدة وعميم النفع ،ويحصل به من الفرح والسرور مالا يحصل بغيره،وذلك كله هو قرب ظهور مملكة الله في الأرض. وحكم الله الدائم ،أو بمعنى مباشر قرب ظهور الإسلام،وهو الذي عبر عنه عليه السلام، وفي كثير من صفحات الأنجيل بكلمة (ملكوت الله) ،بحيث تحول الأنجيل في خاتمة المطاف إلى أمر ألهي واجب التحقيق ،وأنحصرت نبوته كلها في التبشير شفهياً بضرورة انتظار هذا الدين ،في زمانه أو في مستقبل الأيام.

ويفهم من عبارة ملكوت الله في مصطلح الأنجيل وبناء على طبيعة نبوة عيسى عليه السلام ، أنه طريق ومنهج للنجاة والخلاص،فتحول إلى أمل مرتقب ،وغدت عبارته ، ودل نطقه:

" على ان هذا الملكوت يكون في صورة السلطنة لا صورة المسكنة ،وان المحاربة والجدال فيه مع المخالفين يكون لأجله ، وأن مبنى قوانينه لابد ان يكون كتاباً سماوياً ،وكل من هذه الامور تصدق على الإسلام وعلى الشريعة الإسلامية".

وبناء على ما تقدم فقد بعث عيسى عليه السلام اصلاً مبشراً بظهور الإسلام على الأرض ،وبكتاب جديد يحمل اسم كلام الله،ويتخذ من القوة والإقتدار والمنعة أداة في حكمه . وفي تنفيذ أحكامه ،وحكمه هو الذي يسود بين الناس ،ويهيمن على حياتهم العلمية والعملية ، وهو وحده الذي يستحق اسم حكم الله.

وكان من الطبيعي ان يتولى عيسى عليه السلام بنفسه مهمة التبشير به لخاصة قومه ،فيروى عنه متى قوله (30:9):

" واخذ يسوع يتنقل في المدن والقرى كلها يعلم الناس في مجامع اليهود وينادي ببشارة الملكوت".

وروى عنه لوقا قوله لحواريه(44:49):

"لابد لي أن ابشر المدن الاخرى بملكوت الله، لأني لهذا أرسلت".

أما المناطق التي كان يتعذر عليه بلوغها فكان يرسل إليها حواريه وتلاميذه مبشرين هم كذلك بقرب ظهور ملكوت الله، ووجوب ترقبه وانتظاره ،فقال لهم قبل انطلاقهم (لوقا:10: 8-11):

"واية مدينة دخلتم وقبلكم أهلها فكلوا مما يقدم لكم واشفوا المرضى الذين فيها،وقولوا لهم قد اقترب منكم ملكوت الله ،واية مدينة دخلتم ولم يقبلكم أهلها فأخرجوا إلى شوارعها وقولوا حتى غبار مدينتكم العالق ننفضه عليكم، ولكن أعلموا ان ملكوت الله قد أقترب".

وايا ما كان الأمر فقد اعطى عيسى عليه السلام بعداً جديداً لملكوت الله، يفهم جيداً من خلال دعوته لبني قومه خاصة، وكآخر رسل الله إليهم ، لأن مجيئه يعني أكتمال دورة من الزمان بها ختمت النبوة لخاصة القوم ، ولتبدأ من بعدها دورة جديدة من الزمان ،النبوة للناس كافة ، وزمانها ممتد إلى قيام الساعة ،ومن هنا كانت بشارته صريحة في اقتراب ملكوت الله أو منهجه وشريعته الخاتمة.

القريبة وغاياتها البعديدة ،وكما تلقوها شفاهة وعلى رأسها الاعتقاد في الله واحداً واحداً ،لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، ثم التزامهم التام كغيرهم بالعبادة داخل هيكل سليمان عليه السلام، والصلاة فيه،واتباعهم الشريعة الموسوية (الناموس) بكل دقة وصرامة كما أوصاهم نبيهم.

إضافة إلى ما مضى فقد كانوا يؤمنون عن يقين تام بأن نبوة عيسى عليه السلام ليست ناسخة لنبوات من سبقوه من الرسل والأنبياء،ولا مبطلة للتوراه ، إلا أنهم مارسو ثلاثة طقوس او شعائر تعبدية ،عدت فيما بعد من خصوصيات الدين المسيحي وهي:

- التعميد أو المعمودية ،وهو طقس الغسل بالماء رمزاً للنقاوة وعلامة التطهير،وايذاناً بالأنخراط في الدين الجديد والانتساب للجماعة المؤمنة ،وكان على كل من يقبل الدعوة ان يتعمد بالماء.
- المشاركة أو الشركة ، في كل ما يملكون ويحوزون عليه من متاع الدنيا ، ويتقاسمونه فيما بينهم كل على قدر احتياجه.

- كسر الخبز في البيوت تذكاراً وتذكيراً بما فعله عيسى عليه السلام قبل رفعه لحوارييه ، إذا قطع الخبز ووزعه عليهم، وذلك اعترافاً منهم بأنهم صاروا أخوة في الله وعائلة واحدة.

وكان اغلب من آمن بعيسى عليه السلام في الفترة القصيرة التي اعقبت رفعه من اليهود الفقراء في أورشليم،وفي الجليل وسائر أنحاء فلسطين ،ولم يشكلوا في هذه المرحلة مذهباً خاصاً بهم ولا جماعة أو تجمعاً يميزهم عن غيرهم فيستقلوا عن الجماعة الكبيرة ،بل كانوا جزء لا يتجزأ من اليهود ، يترددون كغيرهم على الهيكل ،ويحترمون التوراة، مع تمسكهم واحتافظهم بخصوصية ايمانهم بعيسى عليه السلام رسولاً نبياً ،واتبعهم لتعاليمه.

ولا يعرف بالتحديد عدد هؤلاء المؤمنين ،اللهم إلا ما ورد في الاصحاح الأول من سفر اعمال الرسل(15:1) من انهم قد بلغوا مئة وعشرين ،وعدد قليل من النساء المثريات كان البعض منهن ينفقن عليهم من اموالهن ،وذلك في الفترة ما بين عام 35و37 للميلاد ومرد تلك القلة إلى التضييق والحصار الذي مورس عليهم وحد من حركتهم ، وعلى وجه أخص من كهنة العبد المناوئين الأوائل لعيسى عليه السلام والمنكرين لرسالته ونبوته.

كما لم يكن يعرف لديهم نظاماً أو تنظيماً معيناً يرعى شئونهم ويوحد بينهم ، ولكن من الثابت ان الحواريين الاحد عشر كانوا متقدمين على من سواهم لسبقهم بالإيمان وياتي بعدهم التلاميذ السبعين الذين اختارهم عيسى عليه السلام رسلاً ، وحظى كل من بطرس ويوحنا بن زيدي ويعقوب (اخو الرب) بالكلمة المسموعة والنفوذ الروحي الكبير بين هذه الجماعة الصغيرة.

وكان يعقوب وحده والملقب بالبار ،وبموجب رواية أباء الكنيسة فيما بعد، نافذ الكلمة ،ويلقى التقدير والاحترام والقبول فيما بينهم ، نظراً لزهده وتقشفه وورعه وشدة غيرته على الشريعة ،لأجل ذلك آلت إليه قيادة هذه الجماعة صغيرة العدد في أورشليم ،لا سيما بعد خروج بطرس رسول المسيح وخليفته من بينهم للتبشير في تجمعات اليهود في اورشليم وما حولها.

ومن هنا برز ولأول مرة مفهوم الجماعة والقيادة معاً في تاريخ الرسالة العيسوية ، فتولى يعقوب الإشراف على أمور المؤمنين ،وتميز المؤمنون – لوجود قيادة فاعلة توجههم عن غيرهم من اليهود ،وذلك لجمعهم بين ديانتين (الموسوية والعيسوية) ،فغلب عليهم اسم اليهود المتنصرين.لتقيدهم وتمسكهم بالتوراة ،وشريعة موسى ، وايمانهم بعيسى رسولاً ونبياً ، واتباعهم لتعاليمه ،ومحافظتهم عليها.

وهؤلاء اليهود المتنصرون هم الذين تولوا رغم الاضطهاد والحبس والقتل أحيانا ، مهام التبشير بهدف رسالة معلمهم وغايتها الكبرى بين تجمعات اليهود المنتشرة في أنحاء العالم الروماني ،وعلى وجه الحصر والتقييد ،متبعين في ذلك أمره ووصاياه التي تنص على توجيه دعوتهم إلى بني اسرائيل وحدهم ولا شأن لهم بمن يحيط بهم من الأمم والشعوب.

وبالفعل فقد تقيد رسل المسيح عليه السلام وحصروا دائرة تبشيرهم ببني قومهم ،فجاء في سفر اعمال الرسل(11: 29 – 30):

" اما المؤمنون الذين تشتتوا بسبب الإضطهاد الذي وقع عليهم بعد موت استفانوس ، فمروا بفينيقية وقبرص وانطاكية ،وهم لا يبشرون بالكلمة الا اليهود".

وحافظ بولس لما آمن بنبوة عيسى عليه السلام على تلك الوصايا والأوامر اسوة بباقي الحواريين ،فلم يخرج ببشارته في بداية أمره إلى غير اليهود ،فيروي عنه سفر اعمال الرسل قائلاً (17: 4-5):

"وإذا ارسل الروح القدس برنابا وشاول إلى ميناء سلوكية ،وسافرا براً باتجاه قبرص ،ولما وصلا الجزيرة نزلا في سلاميس واخذا يبشران بكلمة الله في مجامع اليهود".

وروى أيضاً(19:18):

"فلما وصلوا افسس تركهما بولس فيها ، ودخل مجمع اليهود وخطب فيهم".

وذلك يعني ان رسل المسيح كانوا يقصدون رأسا مجامع اليهود ،أي مكان اجتماع ومركز عبادتهم ودار قضائهم وذلك لان كل مجمع عندهم هو بمثابة مركز اشعاع ديني وعلمي للجماعة ، وعن طريقه ينتقل التاثير إلى كافة الأفراد.

وهكذا ما فتى هؤلاء الرسل يبشرون اليهود بهدف البعثة العيسوية وغايتها نسواء في اورشليم وداخل حدود فلسطين و خارجها حتى شملت رحلاتهم وغطت معظم تجمعات اليهود أينما وجدوا ،دون ان يعبروا غيرهم من الأمم التفاتاً.

ولما انحرف يولس عن الخط العام للجماعة ،وشرع يدعو غير اليهود من الأمم ليس بهدف البعثة وغايتها ،بل بدين جديد يحتوي على الكثير من عقائد الشعوب الوثنية ،مما لم يجد فيه هؤلاء فرقا بينه وبين ديانتهم ،فأقبلوا عليه مما شجعه على التساهل معهم أكثر فأكثر ،وبالتالي لم يشترط عليهم توحيد الله أو الخضوع لأحكام الشريعة الموسوية ،وعلى رأسها ختان الذكور .

وعلى الرغم من هذا الانشقاق الكبير ،فقد بقيت الجماعة – أي اليهود المتنمرين – متماسكة في وحدتها وفي دعواها وتبشيرها لا تحيد عنه ولا تساوم عليه، لاعتقادهم القوي بخصوصية البعثة العيسوية ،وتركيزها الشديد على تحقيق هدفها القريب وغايتها البعيدة،واي تنازل او تراخ فيها يفضى بالضرورة إلى فقدانها وحدتها وانسجامها ،مما يتريب عليه تلقائيا تفويضها من الاساس.

إن خصوصية البعثة العيسوية وشدة ارتباطها باليهود ليس خافياً ولا مجهولاً عند الشعوب والأمم المحيطة بهم، والمداخلة لهم لغة وثقافة ،وبالتالي فإذا كان هناك شئ بعينه شد الناس وجذبهم إلى نبوة عيسى عليه السلام،ولقى عندهم الترحيب والقبول والتصديق ،فهو غاية البعثة ،وهي كما عرفنا التبشير بمبعث الرسول الخاتم لسائر الرسل.والرسالة لخاتمة لسائر الرسالات.

وذلك لأن البشارة بها تتجاوز الإطار الضيق والمحدود ليخص الناس آجمعين ،ومن هنا كانت استجابتهم لنبوة عيسى عليه السلام وبشارته معاً ،فآمن يه من آمن

وصدقه من صدق رسولاً ونبياً ، لا لشئ إلا لكونه مبعوثاً ومبشراً بنبوة ورسالة تالية عليه في الزمان ،لا لكونه مبعوثاً لخاصة قومه من اليهود.

ثم اتسعت دائرة القبول وتسارعت وتيرة الاستجابة عندما أدرك الناس وعلموا عن يقين بأن الوحي الذي انزله الله عليه حمل اسم الأنجيل ،أي التبشير بالسعادة الحقيقية ، أو الاخبار والاعلان با يؤديان إلى الشعور بالبهجة والأرتياح النفسي والقلبي،وبها يتحقق لهم من الخير الدنيوي والآخروي ما يكون مدعاة لفرحهم واستبشارهم.

وهؤلاء الذين امنوا بعيسى عليه السلام من غير اليهود وارتضوه نبياً ورسولاً على ما جاء به من بشارة للعالمين هم الذين وضعهم الله على قدم المساواة مع اليهود ،وفي منزلة اهل الكتاب أسوة بغيرهم ممن أوتي الكتاب والنبوة ،فقال تعالى (البقرة62):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقال ايضاً(المائدة 69):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

وقال ايضاً(الحج 17):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وخصهم الله تعالى كما خص غيرهم من اهل الكتاب في المواضع التي يقتضي فيها أفرادهم بالذكر دون غيرهم ،فقال تعالى(المائدة 14):

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾.

وقال ايضاً(المائدة 82):

﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾.

والنصارى اسم جمع مفرده نصراني نسبة إلى مدينة الناصرة التي ظهر فيها ملاك الله لمريم عليها السلام يبشرها بميلاده عليه السلام ، وعلى ترابها نشأ وترعرع ،ووفيها قضى معظم حياته وإليه نسب أيضاً فلقب بعيسى النصراني أو الناصري.

واسم الناصرة من الاسماء العبرانية القديمة ،وورد بعدة صيغ مثل نصرّى ونصري بفتح الصاد وسكونها،وناصرة ونصروية ،ويفيد الاسم في دلالته العامة ما تفيده كلمة نصر أما على عمل الخير أو فعله،وتبعاً له حمل اسم الناصرة معنى الحارسة والمحروسة.

أما غيرهم من الناس فقد نسبوهم إلى أحد أشهر القاب عيسى عليه السلام ، وهو المسيح ،أي الممسوح بدهن المسحة، وهو الزيت المعطر الذي امر الله تعالى ان يتخذه موسى عليه السلام ،ليسكبه على رأس أخيه هارون حينما جعله كاهناً لبني اسرائيل.

جاء في سفر اعمال الرسل(11: 25 – 26):

" وتوجه برنابا إلى طرسوس ليبحث عن شاول ،ولما وجده جاء به إلى انطاكيه ،فكان يجتمعان مع الكنيسة هناك سنة كاملة ويعلمان جمعاً كبيراً ،وفي انطاكية أطلق على تلاميذ الرب لأول مرة اسم المسيحيين".

أي أولئك المنتسبون إلى دين المسيح عليه السلام، والمؤمنون بنبوته ورسالته ، ومن الراجح ان اطلاق هذا اللقب، كان فيه تهكماً وازدراء بهم ،وذلك لأنه عليه السلام أتهم في حياته بأنه سعى جاهداً لتنصيب نفسه ملكاً على اليهودية ،ثم غلب عليه أطلاق الوصف ،وأشتهر به حتى محل اسمه الحقيقي.

فيروي سفر أعمال الرسل قائلاً_(26: 28 -29):

"قال بولس : أيها الملك اغريباس اتصدق اقوال الأنبياء ،أنا أعلم أنك تصدقها ،فأجاب اغريباس :قليلاً بعد وتقنعني بأن أصير مسيحيا".

ومقصوده أن قوة حجته وسلامة منطقه وعذوبة كلامه،أوشكت على أن تجعله ممن يرضى بأن يعاب بأنتسابه إلى تلك الطائفة ، فهو يخجل ويستحي أن يطلق عليه هذا الاسم.

وعلى أمتداد القرون الثلاثة التي سبقت انعقاد مجمع نيقية عام 325م، كان الاعتقاد في وحدانية الله واحديته هو الغالب على تدين الذين قالوا انا نصارى ، وجاءات الكتابات التي ظهرت تباعاً في القرن الأول لميلاد المسيح،ومتضمنة على أقواله ومواعظه الشفهية ،مؤكدة على ذلك المعتقد وداعية إليه.

منها على سبيل المثال ما أوحي به راعي هرمس المكتوب عام 90م،فقال في وصيته للمؤمنين:

"قبل كل شئ آمن أن الله واحد، وانه خلق كل شئ ودبر أمره ،ومن العدم خلق الاشياء كلها ،وهو يسع الكون كله ولا يسعه الكون، توكل عليه واخشه، وأملك نفسك عند خشيته ،وعندما تحفظ تلك الوصية تبعد عن نفسك كل الشر، وتضع مكانها كل فضائل الاستقامة ، وإذا حفظت هذه الوصية ستعيش حسب رضا الرب."

و ظل هذا الاعتقاد هو الاقوى ايضاً في كتابات المفكرين النصارى في هذه الفترة ،وكذلك الأبرز والأهم في خطب ومواعظ وادبيات رؤساء الجماعات المسيحية وقادة الرأي منهم،نذكر من بينها مقولة جوستين الشهيد عام 167م التي لخص فيها وبتركيز شديد ماهم عليه من اعتقاد ،جاء فيها:

"نحن نعبد اله المسيحيين ،الأله الواحد الذي نؤمن بأنه الخالق الأصلي لكل العالم ،ولكل الأشياء المنظورة وغير المنظورة ،والرب يسوع عبدالرب الذي تنبأ عنه الأنبياء كنبي الخلاص لكل البشر،ومعلم المعرفة السامية.

أما عيسى علية السلام فلم يكن عندهم موضع جدل ولا نقاش ،فهو كما اخبرهم بنفسه بشر مثل بقية خلق الله، وإنسان ولو كان مصطفى مختار من الله. أيده الله بالمعجزات الخارقة لعوائد الناس،ليس لهم عقيدة غيرها،ولا قناعة سواها ،وليس في

اقواله ولا تعاليمه ،أو وقائع حياته على الأرض ما يؤدي إلى زحزحة اعتقادهم في طبيعته البشرية ولا تغيير في يقينهم بشخصيته التاريخية.

ولما بدأت تتردد على ألسنة النصارى آراء وافكار جديدة معارضة لذلك الأعتقاد الراسخ ،مثل كلمة الأب التي اضيفت لله تعالى،قبل وصفه بما يستحقه من اوصاف،ونسبة عيسى للاب بوصفه أبناً له،وغيرها من الافكار التي مهدت لتأليهه وتألهه،وقفوا منها على الفور مستهجنين وفزعين لكونها خروجاً صارخاً عن الاعتقاد الحق ،وتشويهاً متعمداً ،وغير مسبوق لما انزله الله على عباده المرسلين.

ويعد بولس السميصائي أسقف مدينة انطاكية عام 260م من أبرز المتصدين لذلك الأنحراف الخطير في عقيدة التوحيد ،ومن أكثر المدافعين عنها قبل مجمع نيفبة،وتتلخص دفاعاته في الآتي:

دعا بولس إلى التوحيد من زاوية أن الله في خصوصيته المتفردة واحد واحد ووحيد، لا مساو له ولا شبيه ولا نظير وهو الخالق للأشياء جميعها ،وكل ماهو خارج عنه فهو مخلوق له، وهو أيضاً خالق الكلمة ،أي عيسى عليه السلام ،وهو يرى من جهة أخرى أن الله تعالى ووفقاً للمصطلحات المتعارف عليها بين مخالفيهم جوهر واحد (افنوم) ،لا مثيل له ولا نظير.

أما باقي المفردات الدائرة حول معتقد أولئك المفكرين للتوحيد الألهي .مثل اللوجوس (الكلمة) والروح القدس،فهو لا يقر ولا يعترف بها ،ولا يضمها في الذات والجوهر في منزلة الله، بل يراها مجرد قوى وهبها الله للإنسان مثلها في ذلك مثل العقل والفكر وغيرها .نجدها عند عيسى عليه السلام كما نجدها عند أي نبي أو رسول من السابقين عليه.

أما عيسى عليه السلام فهو بحكم مولده إنساناً عادياً.خلقه الله ابتداء في بطن أمه من غير ذكر، أو وفقاً للتعبيرات المستخدمة في زمانه،نساناً من اللاهوت كواحد منا في جوهره ،ولكن لا الهية فيه ولا تأله ، واصطفاه الله رسولاً ونبياً مثل سائر الرسل والأنبياء ليخلص البشر.

ثم رفع من منزلته وشرفه على سائر أخوانه من الرسل بأن حلت فيه محبة الله، وجعل نعمته مصاحبة له، وأخيراً نسبه إلى ذاته العلية على التبني،لا على الولادة والاتحاد ،ولا الطبيعة والجوهر.

وعبارة على التبني فيها انكار مباشر منه للاهوت في المسيح ،أي هو انسان عادي وبسيط ،ولو من الروح القدس، أو بواسطته ،ومن مريم العذراء ،بطريقة فائقة للطبيعة ،وخارقة لعوائد الناس ،ثم حباه الله من يوم ميلاده بالقوة ،وحفظه الله من الوقوع في أخطاء البشروخطاياهم.

وظهر اريوس في وقت برز فيه بين النصارى اتجاه واسع يدعو صراحة إلى الوهية المسيح، فآل على نفسه مقاومته والتصدي له بكل قوة ،فكان يحق علماً على التوحيد ،قبل الانقلاب الأخير عليه، فأكد اسوة بغيره من الموحدين في بداية جدلياته على وحدانية الله قائلاً:

" إذا كان الأب مطلق السمو ومطلق الثبات ،وإذا كان منشئ كل الأشياء من دون أن يكون ذاته صادراً عن أي شئ آخر ،فإنه من الواضح أن كل شئ وكل شخص في العالم منفصل عن الله ،وإذا كان كل شئ منفصلاً عن الله فلا يمكن ان يكون الا واحد".
انتقل بعدها إلى تنزيه الله عن مشاركة ومشابهة الخلف له في الألوهية والتأله فقال:
" ان الله واحد فرد غير مولود ،لا يشاركه أحد في ذاته،وكل ما كان خارجاً عن الله ،فهو مخلوق من لا شئ بإرادة الله ومشيئته".
ثم زاد إلى ما مضى قائلاً:
" الله الواحد الأحد القائم وحده هو الوحيد الذي لم يولد، ليس له بداية أو نهاية، ولا يمكن إدراكه أو التعبير عنه ،وليس له معادل أو مكافئ على الإطلاق ،أن الله لا يخرج شئ من جوهره،ولا يصل جوهره بما خلق ،لأن جوهره غير مخلوق".
فهو بهذا وذاك يثبت لله تعالى صفة الأزلية وواجبية الوجود، وفي الوقت نفسه يعترف له بخلقه المخلوقات خلقاً مباشراً بلا وساطة ولا وسيط ليتحقق له بهذين الأمرين كمال لله ووحدانيته واحديته معاً.
ثم تحول إلى عيسى عليه السلام بوصفه كلمه الله ،فقال عنه:
"أما الكلمة فهو وسط بين الله والعالم ،وكان ولم يكن في زمان،لكنه غير أزلي ولا قديم ،بل كانت مدة لم يكن فيها الكلمة موجوداً ،فالكلمة مخلوق ،بل أنه مصنوع ،وإذا قيل أنه مولود فبمعنى أن الله تبناه، ويؤدي ذلك إلى ان الكلمة غير مصنوع طبعاً، ولكن استقامته حفظته من كل خطأ وذلل ،فهو دون الله مقاماً،ولو كان كان معجزة الاكوان خلقاً لبلغ من الكمال ما يستحيل معه خلق شئ أكمل منه رتبة وحالاً.
وقال ايضاً في احدى كتاباته التوضيحية:
" أن الله خلق الكلمة والابن من أجلنا ،لأنه عندما أراد ان يخلقنا خلق كائناً يدعى الكلمة أو الحكمة ، لكي نكون على صورته ،فلو اراد الله ان لا يخلقنا لاصبح وجود الزمن مستحيلاً"
يعني كان الله حيث لم يكن الابن ،ثم خلق الابن من لا شئ ،وفي فترة محدودة زمانياً ،فصار كلمة منه،ثم تجسدت كلمة الكلمة في مريم فاصبح مسيحياً واحداً، مشتملاً على معنيين كلمة وجسد،الكلمة من الله،والجسد من مريم ،وكلاهما مخلوقان من العدم ،ومن غير مادة الاب ، لا أن الله والمسيح من مادة واحدة.
وفي سياق ردوده على نسبة عيسى عليه السلام لله بالبنوة أكد من جديد على مخلوقية الكلمة في زمان يحدد بالحساب فقال:
"إذا كان المسيح حقيقة ابن الله فيكون الأب قد كان قبل الابن، وعندئذ تكون فترة لم يكن فيها الابن موجوداً ،وهذا يعني ان الابن هو مخلوق من روح ودم،أو كائن لم يكن موجوداً دائماً ،ولأن الله هو الأبدي والموجود دائماً ،فليس المسيح كالله.
أما المادة التي خلق منها المسيح ابتداء فمختلفة كلياً عن مادة الله،فهي من جوهر روحاني خالص في روحانيته.غير مركب ولا مختلط بشئ من عناصر الطبيعة وتدرع بها عند الاتحاد بالجسم المأخوذ من مريم."

وإذا كان المسيح مجرد مخلوق أوجده الله، ،وله بداية ونهاية ،فهو بالضرورة إنساناً حادثاً وليس أزلياً ،وان كان أكثر المخلوقات كمالاً ،وله منزلة يسمو بها فوق بقية الخلق، فيقول عنه:

"أما الأبن فهو ليس أزلياً ،أن هذا الابن غير الأزلي غير المولود من جوهر الأب، خرج للعدم مثل بقية البشر بحسب قصد الرب ومشيئته.

وقال في عبارة اخرى:

"قالابن مخلوق مثل كل المخلوقات ،متغير غير أزلي ليس كلى العلم،ولكن الله قد منحه المجد الألهي الذي هو في النهاية هبة، وعن طريق هذا المجد الممنوح أرتفع الابن فوق كل المخلوقات."

وفي كل الأحوال فالمسيح عليه السلام هو فعل اختياري لله تعالى الخالق له ،وهو خاضع اسوة بغيره لعوامل التغيير ، وتجري عليه سنن الحياة ونواميسها ،له بداية وله نهاية ،أي ليست له صفة الخلود ،ومثل كل المخلوقات العاقلة له إرادة ومشيئة حرة، ومنحه الله أن يسلك طريق الصلاح أو يصبر كالشيطان ،لكن الله سبق وقدر ان يسلك طريق الصلاح والكمال.

كما وهبه تعالى الحكمة والقوة لأداء مهمة محددة المعالم،بعثه من أجلها ،لذلك منحه الله صفات ألهية ، ولكنها ليست كصفات الله ،وبدون مشاركة كاملة لله تعالى في الوهيته،وعلى هذا فإن هذا المسيح.

"الذي دنسه الجسد،وخضع للموت، ابعد من ان يكون الهاً ،فقد خلقه وسيطاً بينه وبين الأرض".

ثم توسع في انكاره لالوهية المسيح قائلاً:

"ان المسيح الذي يعبده المسيحيون ليس الهاً ولا يملك الصفات المطلقة مثل العلم المطلق أو المقدرة أو عدم التغيير والأزلية."

وكل ذلك انكار منه لالوهية المسيح ،وتأكيد على أنه محض انسان وعيدالله، ومهما علت منزلته وسمت فلن تخرج عن نطاق البشرية ،وأطلق عليه كلمة الله تشريفاً وتكريماً ، فيقول متسائلاً:

" كيف تتفق دعوى الاله مع جعل عيسى ألهاً أيضاً، نعم هو شبيه للأله على معنى أنه قريب منه في الدرجة والمنزلة زلكنه ليس مساوياً له."

فالله هو الأله الحق،والابن ليس هو الله في ذاته ،فهما متعارضان بالضرورة تعارض يستند في الاساس على الفروق الجوهرية بين الخالق والمخلوق،وليس متساويين أو متشاركين في الطبيعة الألهية ،أو بالعبارة الأكثر تداولاً ،فهو لا يمت بأدنى صلة لجوهر الله.

أما معرفة عيسى المخلوق بالله الخالق فهي كما يرى :

" معرفة محدودة وليست مطلقة"

وذلك لان معرفته عليه السلام وكما يعتقد ارايوس معرفة نسبية، لأن الله غير منظور ولا مرئي للإنسان ،وهو من جهته لا يحيط به علماً ومعرفة، وما يعرفه عنه خاضع لقواه الإدراكية المحدودة ،ومجالها الضيق في العلم والمعرفة.

الفصل الثاني
الاتجاه التأليهي

يطلق لفظ الذات في معظم معانيه الإصطلاحية ويراد به حقيقة الشئ ويقابله الوجود ، وقد يطلق ايضاً على الماهية باعتبار الوجود، ويراد به كذلك ما قام بذاته في مقابل العرض الذي لاا يقوم بذاته ،كما يراد به صلاحية الحكم على الشئ بالوجود أو العدم ،ويراد به في الوقت نفسه تخصيص ذات الشئ وتمييزه عن ماعداه من الأشياء.

إن المراد بالذات في كل تلك الاستخدامات هو الشئ الموجود مجرداً عما سواه ، ومن ثم انحصر معناه ودار حول امرين:

أولهما : أن الذات هي حقيقة الشئ القائمة بنفسها وهنا تتساوى مع الجوهر في المعنى.

وثانيهما: ان الذات هي مجموعة الخصائص التي تفرد الشئ وتميزه عمن سواه ، وهنا تتساوى مع الماهية في المعنى.

وأستناداً على ما مضى ذكره وتعويلاً عليه جاز شرعاً إطلاق لفظ الذات على الله تعالى ، حيث لا يعبر اللفظ وكما هو بين بنفسه في مدلوله العام تجسيداً لله، ولا تجريداً سلبياً له،بل يدل على وجود مطلق له، لا تكيفه العقول ولا يحصره زمان ولا مكان .

وعرفت الذات الالهية وعلى وجه الحصر والتقييد باسم الله ليصبح الاسم عبارة عن نفسه التي بها هو موجود ،وذلك لأنه تعالى قائم بنفسه ،والذات والنفس يعبران عن حقيقة الوجود معنى زائداً على ذلك، وهذه الذات هي التي صارت مستحقة للاسماء والصفات.

وعندما ارسل عيسى عليه السلام مؤيداً بالمعجزات الخارقة للعوائد البشرية، والمناقضة لسنن الله تعالى وقوانينه في الوجود، كانت عند اليهود دالة على صدق المبعوث ،وعلامة فارقة من علائمه المميزة له عن غيره من ادعياء الوحي والنبوة ، ولكنها لم تكن معروفة لدى الرومان الوثنيين ،فأشاعوا بين الناس ان المسيح هو الله ذاتاً واسماً وصفاتاً.

فروى برنابا (ص 108) مؤرخاً لمعجزاته عليه السلام وشدة وقعها عليهم قائلاً:

" لذلك أخذت الجنود الرومانية في أورشليم بوسوسة الشيطان تثير العامة في ذلك اليوم قائلين أن يسوع اله اسرائيل قد أتى ليتفقد شعبه".

فالرومان اذن لما رأوا استحالة صدور مثل هذه الأفعال من بشر، خلصوا وبسرعة ان عيسى هو الله بذاته واسمه وصفاته،ونزل خصيصاً من عليائه رافة بهم وشفقة عليهم بعد غيبة طويلة عنهم.

وظل عيسى عليه السلام وفي أكثر من مناسبة يحمل الرومان الوثنيين مسئولية ذلك الإدعاء الغريب،فقال لقومه في إحدى مواعظه (برنابا 191):

" أيها الأخوة ان الشيطان ضلكم بواسطة الجنود الرومانية عندما قلتم انني انا الله، فأحذروا من أن تصدقوهم لأنهم واقعون تحت لعنة الله، وعابدون الألهة الباطلة الكاذبة".

وفي السنة الثانية من نبوته حدث انشقاق واسع في الرأي حول شخصيته الفريدة ، وأختلفت الآراء والاجتهادات حول ذاته وحقيقة نفسه:

- فمنهم من قال كما أشاع الجنود الرومان ان المسيح هو الله بذاته قد جاء إلى العالم.
- ومنهم من قال :أنه ليس نبي الله ايليا أو ارميا أو احد الانبياء ،بل هو ابن الله.
- ومنهم من قال: إن الله لم يره احد ولا موسى عبده، فهو ليس الله ،بل هو ابن الله.
- ومنهم من قال: ليس هو الله ولا ابن الله ،لأن الله ليس جسد فيل ،بل هو نبي ورسول عظيم مبعوث للناس من عند الله.

غير ان فكرة تأليه المسيح وألوهيته ،هي وحدها التي برزت وطغت على ما عداها ،وحظيت بقدر معتبر من الرضا والقبول عند العامة، فكانوا يعتقدون فيه اعتقادهم في الله تعالى ،ليس فقط تعظيماً واجلالاً له،بل يخصونه بكل مظاهر الذلة والخضوع ،وظلت علامات ذلك الاعتقاد تتصاعد ،ونبرته تشتد في كل موقف له معهم.

فذات مرة كان عليه السلام في طريقه إلى اورشليم فرآه وكما يروى برنابا (ص141):

"احد الذين يؤمنون بأ يسوع هو الله، فصرخ من ثم بأعظم سرور : أن الهنا آت ،ولما بلغ المدينة آثارها كلها قائلاً:

-ان الهنا آت يا أروشليم تهيأي لقبوله"

وفي مرة اخرى ولما رآه جمع من العامة قادماً نحوهم (برنابا ص 142) أخذوا يصرخون:

"مرحباً بك ألهنا

وأخذوا يسجدون له كما يسجدون لله.

عندئذ تنفس الصعداء وقال:

- أنصرفوا عني ايها المجانين لأني أخشى ان تفتح الأرض فاها وتبتلعني وإياكم لكلامكم الممقوت.

وعندما توفي ابن وحيد لأرملة تضرعوا إليه لأجل الميت طالبين ان يقيمه لانه نبي،فخاف عيسى كثيراً ووجه نفسه لله قائلاً (برنابا ص 76):

" خذني من العالم يارب،لان العالم مجنون وكادوا يدعونني ألهاً"

وصور برنابا حالته في موقف آخر من المواقف التي كان الناس يخاطبونه ويتصرفون معه ،كما لو كانوا بالفعل بين يدي الله ،فقال (برنابا 86):

" ولما قال يسوع هذا صفع وجهه بكلتا يديه ،ثم ضرب الأرض برأسه ، ولما رفع راسه قال:

- ليكن ملعوناً من يدرج في اقوالي اني ابن الله"

ولم يكتف عيسى عليه السلام بالاستنكار والاحتجاج وحده ،بل كان يخاطبهم مبيناً المآلات الخطيرة لذلك الاعتقاد، قائلاً(برنابا 143) :

" انكم لقد ضللتم ضلالاً عظيماً ايها الاسرائيليون لأنكم دعوتموني ألهكم وانا انسان،وإني اخشى لهذا ان ينزل الله بالمدينة المقدسة وباءاً شديداً مسلماً اياها لاستبداد الغرباء، لعن الله الشيطان الذي اغراكم بهذا الف لعنة".

وحاول عيسى عليه السلام وفي أكثر من مناسبة ان يعيد الناس إلى رشدهم وصوابهم المفقود بفعل المعجزات القاهرة ، وحثهم على اعمل عقولهم بالا ينجرفوا وراء وساوس الشيطان مبيناً لهم بالمنطق الهادي والتفكير السليم ان دعواهم ليست باطلة فقط ، بل مناهضة للحق والحقيقة ، فقال لهم (برنابا 19):

" إذا كان الله لم يرد ان يظهر نفسه لموسى عبده ولا ايليا الذي أحبه كثيراً ،ولا لنبي اتظنون ان الله يظهر نفسه لهذا الجيل الفاقد الايمان".

فعيسى عليه السلام فجأهم بهذه الحجة البسيطة مستثيراً لهم بأن يعملوا عقولهم ويقارنوا بينه وبين انبياء عظام سبقوه في الزمان ولم يظهر الله لهم ، فهل يعقل ان يتخذ الله منه وهو الأقل منهم مظهراً لذاته العلية ،وهم على ما هم عليه من انحراف في الدين وبعد عن الايمان.

ثم تتابعت حججه وأدلته القاطعة في دحض فكرة ألوهيته من الاساس ،فقال لهم في إحدى خطبه (برنابا 96):

" إني بشر منظور ،وكتلة من طين تمشي على الأرض، وفان كسائرالبشر،وانه كان لي بداية وستكون لي نهاية ،وأني لا أقدر ان ابتدع ذبابة".

وقال لهم في خطبة اخرى (برنابا 196):

هكذا أراد الشيطان ان يضلكم ايها الاخوة اذ حملكم على التصديق بأنني انا الله ، فإني لا طاقة لي أن اخلق ذبابة ،بل اني زائل وفان لا اقدر أن اعطيكم شيئاً نافعاً لأني نفسي في حاجة إلى كل شئ .فكيف أقدر إذا ان اعينكم في كل شئ كما هو شأن الله"

وأخيراً بين لهم الحق من الباطل حول مجمل ما اشيع عنه، وبطريقة تكشف يجلاء العواقب الوخيمة المترتبة عليه حاضراً ومستقبلاً، فقال(برنابا 145):

"اني اشهد امام السماء،وأشهد كل شئ على الأرض ،إني برئ من كل ما قلتم ،لأني إنسان مولود من أمرأة فانية بشرية،وعرضة لحكم الله ،مكابد شقاء الأكل والمنام وشقاء البرد والحر كسائر البشر".

أراد عيسى عليه السلام بعباراته تلك تذكير السامعين ببداهة انسانيته المجردة بدءاً من مولوده كسائر المواليد من انثى ،مروراً بمعاناته اسوة بغيره من عوارض الطبيعة وتقلبات الحياة وخضوعه المطلق لمشيئة الله، انتهاء بعجزه وضعفه ،ونهايته المحتومة بالموت كسائر البشر.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد ارتبطت فكرة تأليه غير الله ، على الأقل من الناحية النظرية بعيسى عليه السلام ،وأقترنت ذات الله بذاته في الأذهان،ولو من قبيل العلم

والمعرفة ،مما جعله يتحمل ولو قدراً ضئيلاً من وزرها وآثامها. وهو الذي صارح به لحواريه برنابا قائلاً(برنابا172):

صدقني يا برنابا انني لا أقدر ان ابكي بقدر ما يجب عليّ ،لأنه لو لم يدعني الناس ألهاً لكنت عاينت هنا الله،كما يعاين في الجنة، ولكنت أمنت خشية يوم الدين، بيد أن الله يعلم إني برئ لأنه لم يخطر لي في بال أن أحسب أكثر من عبد فقير ،بل اقول لك أنني لو لم أدع الهاً لكنت حملت إلى الجنة عندما أنصرف من العالم ،أما الآن فلا أذهب إلى هناك حتى الدينونة. "

وان دلت نبرات كلامه عليه السلام المفعمة بالحزن والأسى على شئ ،إنما تدل على ان هناك اتجاه قوي وخطير لتأليهه `في حياته ، ويغض الطرف في الوقت نفسه عن طبيعته البشرية ، ومن ثم النظر إليه بوصفه كائناً يقترن بالله تعالى أقتراناً مباشراً في ذاته وصفاته وافعاله ،ومنها ساد الاعتقاد بنسبته لله تعالى بالبنوة،وشاع اطلاق اسم الله عليه ليحل ويمضي الزمن محل اسمه الحقيقي.

وبولس الرسول هو وحده المسئول عن تحويل فكرة الوهية المسيح من مجرد فكرة وثنية،وخرق مكشوف لوصايا الانجيل إلى الدعوة إليها والمناداة بها،وشرحها وتسويقها بكل ما أوتي من قدرة على الفصاحة والبيان، وذلك بعد لقاءه المزعوم بالمسيح في الطريق إلى دمشق ،فيروي عنه سفر أعمال الرسل(20:9):

"وفي الحال بدا يبشر في المجامع بأن يسوع هو ابن الله"

ومن المستحيل على الحواريين وغيرهم من اليهود أطلاق عبارة ابن الله على المسيح أو حتى وصفه بها كتابة او مجازاً لاعتقادهم ان فيها كفراًصريحاً ،واليهود انفسهم وكما يروى عنهم متى حين سمعوه يقول انه ابن الله الصقوا به تهمة التجديف.

والتجديف وفقاً للمصطلح القديم هو شتيمة ،ويقصد به عادة التلفظ بكلام غير لائق في حق الله وصفاته ،وذلك لأن اليهود قد انزلوا انفسهم وعلى الدوام منزلة العبودية لله، وتشرفوا بحمل صفة عباد الله، فكان من الطبيعي الا يستعمل عيسى عليه السلام قط تعبير ابن الله ،ناهيك ان يصف به نفسه ،والمقاطع التي وردت على لسانه سواء في الاناجيل ،وما تلاها من مكتوبات متصلة بها ، عدت اليوم من الاضافات المدسوسة عليه ،ولم تكن كما يذهب البعض سوى خطأ لغوي فاحش ،وضرب من ضروب السفه في الدين والاعتقاد.

ولأجل هذا كله رجح بعض الباحثين ان عبارة ابن الله، كانت في الاصل تعني عبدالله، ولما ترجمت إلى اللغة اليونانية التي وثق بها الانجيل وملحاقاته ،وعن طريقها انتشر بين الناس ،أفادت كلمة عبد معنى مطابقاً لمعناها في اللغة الارامية التي نزل بها أي خادم وطفل.

غير ان شدة اقتران ذلك الخادم او الطفل بالله تعالى من جهة، ودوران حركتهما حول من انتسبوا إليه وتعلقوا به من جهة أخرى، هو الذي ادى إلى سوء فهم في هذا الانتساب والتعلق على حد السواء ،فصورت اللغة العلاقة بينهما كما لو كانت بعلاقة الاب بابنه،والسيد بخادمه .وعبرت عنها لفظاً كحالة قربى حميمة بين طرفين يكن كل

منهما للآخر مودة خاصة ،فأنتقلت كلمة خادم او طفل دفعة واحدة في الترجمة لتفيد معنى (ابن) .اذ ان البنوة فيها خضوع وتبعية للابن تجاه الاب ،وهو المعنى الذي تدور عليه وحوله كلمة عبد، وتعبر على وجه الخصوص عن حالة العبودية.

وبولس الرسول هو وحده الذي يتحمل وزر هذا الخطأ الشنيع ،وذلك حين تجنب عن قصد وتعمد ترجمة عبارة عبدالله إلى خادم الله ،مفضلاً عليها كلمة طفل الله في افادتها المباشرة لمعنى الولد الصغير،ودلت النسبة لله تعالى على معنى ولد الله أو ابنه ،وبهذا أدخل ولأول مرة في عالم الموحدين لفظ ابن الله الذي يعتبره اليهود من أفحش الكذب، وفيه شتم لله يدهش السامع ويحيره.

فإذا حل الله وكما يعتقد بولس محل الوالد ،فمن السهل عليه ان يسميه تبعاً لذلك اباً ، كما يسمى كل من كان سبباً في ايجاد شئ والداً ،فقال في الرسالة الاولى إلى مؤمني كورنتوس (6:8):

" فليس عندنا الا اله واحد هو الاب الذي منه كل شئ"

وقال ايضاً في الرسالة إلى مؤمني غلاطبة (1:1)

"من بولس وهو رسول من قبل الناس ،ولا بسلطة انسان بل بسلطة يسوع المسيح ،والله الاب الذي اقامه من بن الأموات"

وانطلاقاً من قوة تلك العلاقة بين الاثنين وعمق محبتها ،نسب الله ابوته لعيسى عليه السلام ،ابوة حقيقية لا مجازبة ومن نفس جوهر الذات الالهية ،فقال في الرسالة الى مؤمني أفسس(1:1):

" تبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح "

وقال ايضاً في الرسالة إلى مؤمني كولوسي(3:1):

":اننا دائماً نرفع الشكر لله ابي يسوع المسيح فيما نصلي لأجلكم."

وبحكم تلك النبوة أنزل بولس عيسى عليه السلام المنزلة التي لله تعالى ، بل هو الله ذاته الذي يتوجه إليه الناس بكافة أنواع الخضوع والتذلل ،فيقول في الرسالة إلى مؤمني روما(1:8):

" بادئ ذي بدء أشكر ألهي يسوع المسيح من أجلكم جميعاً ."

ويقول ايضاً في الرسالة نفسها(8:1):

" فيما اننا قد تبررنا على اساس الايمان صرنا مع الله ربنا يسوع المسيح"

وبناء على ما سبق فالمسيح وكما يعتقد بولس هو(الرسالة إلى مؤمن كولوسى" (1: 15 -20):

"صورة الله الذي لا يرى والبكر على كل ما قد خلق ،إذ به خلقت جميع الاشياء مافي السموات وما على الأرض ،ما يرى وما لا يرى، اعروشاً كانت ام سيادات ام رئاسات ام سلطات ،كل مافي الكون قد خلق به ولأجله ،هو كائن قبل كل شئ وبه يدوم كل شئ ، وهو راس الجسد ،أي الكنيسة ،هو البداءة وبكر القائمين من بين الأموات ليكون له المقام الاول في كل شئ ،فإن فيه سر الله ان يحل الاموات ليكون له المقام

الأول في كل شئ ،فإنه فيه سر الله ان يحل بكل مثله ،وأن يصالح به كل شئ مع نفسه .فبه يصالح كل شئ سواء كان ما على الارض أو ما في السموات".

ومن هذه المعاني الجامعة اكتملت عند بولس الوهية المسيح عليه السلام،ومساواته لله في الطبيعة الالهية بجوانبها المختلفة ، فمن حيث النوع والصفة هو الله ذاته، له كل الكمالات غير المحدودة التي للجوهر الألهي ،وهو لا يعكس في ذاته شكله وصورته ،بل يعلن بذاته الله، وهو نزل من السماء وليس من تراب الارض وهو رب الجميع ،كان قبل كل شئ ومع كل شئ الخالد مع الله ،الخالق للكون ، ومبدع مافي السموات وما على الارض،الذي يحتل المرتبة الأولى على خلقه.

فعيسى عليه السلام لم يكن على الإطلاق بشراً رسولاً، بل هو اله حق من اله حق،من جوهر ابيه ،ومع هذا فهو انسان في جوهره كواحد منا،ومن هنا جاء تفرده الذي لا نظير له ،فهوابن الله ليس من الناحية الجسدية كما يتبادر للذهن من كلمة ابن أو ولد بل كتشبيه يعبر من خلاله على عمق المساواة بينهما في الطبيعة الألهية ، التي وان امتنعت على الفهم ،واستحال على العقل قبولها والتسليم بها ،فهي في كل الأحوال سر من اسرار الألوهية المحجوبة على الناس ،رحمة بهم وشفقة عليهم.

ولعل واحد من هذه الاسرار هو سر التجسد ،صحيح ان بولس لم يذكر كيفية تحول المسيح الانسان إلى اله ،ولكنه وضع الاساس لفكرة تجسد الله في المسيح ،أو بعبارة اخرى ان المسيح هو الله الذي تجسد في طبيعة انسانية ، فقال عن المسيح في الرسالة إلى مؤمني كولوسى(9:2):

"فإنه فيه جسدياً يحل الله بكل ملئه"

وقال ايضاً في خطابه لهؤلاء المؤمنين (21:2):

" قد صالحكم الآن في جسد بشرية ابنه بالموت ".

وقال في الرسالة الأولى إلى تيماثاوس (16:3):

" ان سر التقوى عظيم ،الله ظهر في الجسد شهد الروح ليرى"

وأخيراً وبعد كل هذا فإن المسيح تتمثل فيه الروح القدس ،أي روح الله، وهي التي تعبر فعلياً عن جوهره الرباني،ومن خلالها يعمل المسيح ،وكما يعتقد النصارى فيما بعد ،على انفاذ وتنفيذ خطة الله الكبرى في بعث الإنسانية وخلاصها.

وأشارة بولس إلى الروح القدس،أو روح الله ،أو روح المسيح .كانت هي الاخرى بلا تفاصيل ،فقال في الرسالة الأولى إلى مؤمني أفسس(30:4):

" ولا تحزنوا روح الله القدس الذي ختمتم ليوم الفداء"

وقال أيضاً في الرسالة الاولى إلى مؤمني تسالونيكي (5:1):

" لأن تبشيرنا لكم بالأنجيل لم يكن مجرد كلام،بل كان مصحوباً ايضاً بالقوة وبالروح القدس، وبتمام اليقين. "

وايا ما كان الأمر فإن بولس هو اول من دعى صراحة إلى ألوهية المسيح من بين الذين قالوا انا نصارى في تلك الفترة المبكرة من عمر الدين، فاتحا الباب على

مصراعيه ليظهر اتجاه تأليهي جديد يقف من الاتجاه التوحيدي السائد بينهم موقف الضد من ضده والنقيض من نقيضه.

وشاء الله تعالى لهذا الاتجاه ان يكون مركز انطلاق لدين جديد ينسب في الظاهر لعيسى عليه السلام،ولكنه في أصوله وفروعه من ابتداع بولس ومن صنعه ،ولا علاقة له بالمسيح ،لأن المسيح لم يدعو إليه ،ولا هو الذي وضع قواعده.

غير ان أخطر ما تمخض عنه هذا الاتجاه هو أن شخص المسيح قد تحول إلى موضوع جوهري في الاعتقاد والعبادة، وهو الذي عرف فيما بعد بطبيعته المتوزعة بين طبيعيتين آلهية(لاهوتية) وبشرية (ناسونية) ،واضعاً بتلك الأزدواجية في الذات الواحدة الناس امام مشكلة تعتبر بحق من اعقد المشاكل التي عرفتها البشرية ، وأوقعت النصارى في خلافات حادة كفر فيها بعضهم بعضاً. واغرقتهم في مجادلات طويلة ومملة وغير مفهومة ولا معقولة لدى الأكثرية الساحقة منهم ،فكانت بحق اشبه بالمتاهة التي ضلوا فيها ضلالاً بعيداً.

ثم تطور الاتجاه التأليهي بعد بولس وببطء شديد وتحت وطأة مقاومة عنيفة من اليهود المتنمرين ومن النصارى الموحدين،ظلت وعلى الدوام تحد من تمدده وتعوق انتشاره . ولكنها رغم حدتها لم تقف في وجهه او تقضي عليه ، فبقى صامداً وثابتاً ومستقراً مما مكنه من اكتساب عدداً معتبراً من الانصار والمؤمنين .حتى وصل وبعد انقضاء قرن كامل ان يرتقي إلى حد المذهب او المعتقد الديني.

وذلك لأنه وبحكم مكوناته المعرفية ،وبحكم طبيعته النظرية كلاً منظماً من الآراء والافكار والمبادئ ،حتى وان تميز في غالبها بالغموض والإبهام ،إلا أنها متسقة على شكل وهيئة يجعل بعضها أصولاً ،ومن البعض الآخر فروعاً ، او بمعنى آخر بعضها اسساً والبعض الآخر ثمرات ونتائج.

ان الاتجاه التأليهي بحكم كونه معتقداً ونظرية امتاز كغيره من المذاهب بخاصية الشمول والعمومية والقدرة على تفسير كل جانب من جوانبها المعرفية ،واخيراً قدم للناس كمذهب حقيقي ،لأن كل مذهب مهما كانت درجته في ميزان الحق والباطل مرشح طبيعي بصحته وصوابه،والا تجرد من مذهبيته ولانحط درجة إلى الفرض والخيال.

وعلى امتداد القرنين السابقين على انعقاد مجمع نيقية تناول التألهيون بالشرح والتحليل ما كان في اعتقادهم يعد ايمان الرسل الذي انتهى اليهم في صيغته التي وضع أصولها بولس الرسول وهي التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

كان المسيح قبل عملية التجسد هو الله ،وذلك استناداً على عبارة انجيل يوحنا(1:1):

"في البدء كان الكلمة ،والكلمة كان عند الله وكان الكلمة هو الله".

أي ان المسيح هو انسان كامل ،واله كامل ،فبرغم انه اتخذ الناسوت كاملاً ،وعاش كإنسان ،الا انه لم يكف أبداً عن ان يكون الله الابدي الازلي ،الكائن على الدوام ،وخالق الكون والقوة التي تربط الخليقة معاً،ومصدر الحياة الأبدية ،هذا هو الحق عن المسيح وأساس كل حق.

فإذا كان بولس يقول:
" اعطاه اسماً فوق كل اسم"
فإن هذا لا يعني ان الله رفع المسيح باعطاءه شئ لم يكن له من قبل، أو رفعه إلى درجة لم يكن قد وصل إليها سابقاً ،بل في اعطاءه هذا قد اعاده إلى الدرجة التي كان عليها من قبل،أو بعبارة اشمل ان الله قد أعلن ان يسوع المسيح هو نفسه الكلمة .أي الله الذي كان مخفياً ومتوارياً في الجسد ،ومجهول من الناس ،والآن أصبح معروفاً ومعترفاً به.
ان الكلمة هو كائن أزلي لا بداية له ،بل هو بداية كل بداية ،والبداية التي ليست لها بداية ،هي المعادل الطبيعي لوجود الله ،لأنه هو الله نفسه ،أو بمعنى آخر ان الكلمة استخدمت هنا لتكشف عن تجسد ابن الله ،أو الله نفسه قد صار جسداً وإنساناً معاً.
والوحدة في كل الأحوال قائمة بين الاب والأبن،فمع ان الابن غير الاب ، الا انه في الأب والابن فيه ،وكل ماللأب فهو للأبن ومن رأى الابن فقد رأى الأب، وذلك لأن وحدة الأب والابن ليست وحدة ادبية ،بل وحدة جوهرية ،لأن الابن من جوهر الأب.
إن عملية التجسد تلك هي عملية اتحاد كلي وجزئي دون ان تطغي أو تتلاشى طبيعة الواحد في طبيعة الآخر،فالمسيح الذي تجسد أو أصبح جسداً ،قد أصبح فعلاً وحقاً إنساناً ،وهذا يؤدي بدوره إلى أن المادة أو الجسد هو جزء لا يتجزأ من المسيح وهو معنى ان الكلمة صار جسداً ، واقام بيننا وكواحد منا،يفرح ويعطش ويبكي ويتالم ،لانه صار فعلاً وحقاً جسداً.
فنحن واستناداً إلى ذلك الايمان الرسولي بازاء معتقدين وليس معتقداً واحداً:
أولهما: الإيمان بالإنسان المتأله ، أو الإنسان الذي أصبح ألهاً.
ثانيهما :الاب الذي ظهر في شكل وهيئة انسان أو بشر.
وهذان المعتقدان هما الذاتن شكلا المرتكز الاساسي لما عرف فيما بعد عند التآلهيين بقانون الإيمان أو قاعدة الايمان ،ومختصر الايمان المسيحي الذي وكما يرون تسلمته الجماعة المؤمنة من الرسل ،والرسل من المسيح ،والمسيح من الله وله صورتان:
الاولى: هي صيغة الثالوث الواردة في انجيل متى (19:28) على لسان عيسى عليه السلام ،وذلك حين قال لحواريه :
"أذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الاب والابن والروح القدس".
والثانية :هي اعتراف ورد في الرسالة الأولى كمؤمني كورنثوس (3:12) ،ورد على النحو االتالي:
" وكذلك لا يستطيع احد ان يقول ،يسوع الرب، الا بالروح القدس"
واجتهد شراح ومفسرو ذلك الايمان للخروج بصيغة تتفق تماماً مع ما انتهى إليه الرسل أنفسهم،لعل من اقدمها صيغتان انتشرت بين التأليهين في منتصف القرن الثاني للميلاد :
- الصيغة الأولى هى على الأرجح الأقدم ،أو الأولى لقانون الرسل،جاء فيها:
- أومن بالأب الكلي القدرة

وبيسوع المسيح مخلصنا
وبالروح القدس المعزي ،وبمغفرة الخطايا
وبعدها بفترة مقدرة ظهرت الصيغة الثانية لتضيف إليها معاني فرضتها طبيعة القانون لتلك الفترة ،جاء فيها :
- أومن بالله الاب الكلي القدرة
وبأبنه الوحيد سيدنا يسوع المسيح
وبالروح القدس ،وبقيامة الجسد
وبالكنيسة المقدسة الجامعة(الكاثوليكية).
والصيغتان رغم تباعدهما الزماني في الظهور تعبران وبتركيز شديد عن المعتقدين المعترف بها في أوساط الجماعة ،اعنى :
ان المسيح هو صورة الله الكاملة ، أو صورة الله الحقيقية ،أو بعبارة اخرى هو الاله المتجسد ،و ذلك لأن فيه نزل الله إلى الإنسان ،وبه رفع الإنسان إلى الله ،أو من زاوية أخرى الوحدة الكاملة بين الكلمة والجسد ،أو بين الله الأب والله الابن ،فإن الله الذي حل بالجسد لم يعدم مافي الجسد الذي سكن فيه من صفات ،وكذلك الجسد الذي حل الله فيه بقى كما هو في الألوهية.
وبهذا الاتحاد وتلك الوحدة الجوهرية يمكن للمسيح في حالة ارتباطه بالله ان يمثل الإنسان ،وعن طريق ارتباطه بالإنسان ان يمثل الله، وذلك هو الذي يقود المسيح الإنسان إلى الله.ثم يعرف الإنسان بالله ،أو بعبارة اخرى:
أن الاتحاد بين الكلمة والجسد كان واضحاً في تصرفات المسيح، فهو يتعب ويأكل ويشرب ،لانه إنسان ،و كان يعمل المعجزات لأنه الله ، فهناك على الدوام توافق بين الأثنين بلا انفصال ،فالجسد الذي ولد من مريم يربط المسيح بالبشرية ، ولكن الذي صار جسداً هو من الله ،وهو الذي يربط المسيح بالله.
وفي نهاية القرن الثاني قدم الأب ايرانياوس (131 -202م) صيغة أوسع لقانون الإيمان ،جاء فيها:
"هذا إذن هو ترتيب قانون ايماننا:
الله الاب غير مخلوق ،غير ملموس ،غير منظور ،الله وأحد خالق كل شئ ، هذا هي النقطة الاولى.
أما النقطة الثانية فهي كلمة الله ابن الله ،يسوع المسيح ربنا الذي أعلن للأنبياء بحسب تدبير الأب والذي به أي الكلمة خلقت كل الأشياء والذي هو أيضاً ملء الزمان وذلك لكي يكمل ويجمع كل الأشياء ،جاء في الهيئة كإنسان ،وظهر بين الناس مرئياً وملموساً ،وذلك لكي يبطل الموت ويمنح الحياة، ويحقق المصلحة الكاملة بين الله والإنسان.
أما النقطة الثالثة: فهي الروح القدس الذي به تنبأ وبه تعلم الأباء الأمور الخاصة بالله ،وبه اهتدى الأبرار إلى طريق البر، والذي في آخر الدهر سكب بطريقة جديدة على البشر في مختلف اقطار الأرض ،حيث اعاد الإنسان إلى الله. "

أما الصيغة التي ظهرت في القرن الثالث فهي التطبيق العملي والأمثل لكل الصيغ السابقة ،وبيّن فيها كاتبها الكيفية التي يجب ان يتم بها قانون الايمان ،جاء فيها:

" فلينزل إلى الماء ،المزمع ان يعتمد وليضع الذي يعمده يده على رأسه ،وليقل:

- هل تؤمن بالله الكلي القدرة

وليجب المعتمد:

- أؤمن.

فليعمده عندئذ مرة واحدة واضعاً يده على رأسه وليقل عندئذ:

- هل تؤمن بالمسيح ابن الله الذي ولد بالروح القدس من العذراء مريم ،ومات وقبر وقام من بين الأموات في اليوم الثلث وصعد إلى السماوات وجلس على يمين الأب. وسوف يأتي ليقاضي الأحياء والأموات.

وعندما يقول :

-نعم

ليعمده بالروح القدس والكنيسة المقدسة وبقيامه الجسد ،وليقل المعتمد.

- أومن

وليعمده هكذا مرة ثالثة. "

ولعل الصيغة التي وصفها الاب تريليانوس (160 – 250م) ،هي كسابقاتها ولاحقاتها، وحتى الصيغة النهائية التي اقرها اباء الكنيسة في مجمع نيفيه عام 325م،لا تختلف عنها اختلافاً جوهرياً ،فهي بدورها مأخوذة من الرسل ،ومعتقدها او مضمونها العقدي مطابق لما ورد في الأناجيل ،قال فيها:

" يجب الايمان بأله كلي القدرة ،خالق السماء وبأبنه يسوع المسيح الذي ولد من مريم العذراء ، وصلب على عهد بيلاطس البنطي ،وقام من بين الاموات في اليوم الثالث ،واستقبل في السموات ،وجلس على يمين الاب، من حيث سياتي ليقاضي الأحياء والاموات ،وايضاً بقيامة الجسد. "

ونتيجة طبيعية لذلك سمى اتباع ذلك المعتقد التاليهي بالمثلثة تارة والتثليثين تارة اخرى ،لاعتقادهم بثلاثة ألهة متساوية في الوجود والجوهر ، وبهذا الاسم وقفوا مدافعين ومنافحين عنه ضد متاوئبة ومعارضيه وحملوه بكل ثقة ويقين إلى غيرهم حين دعاهم الداعي لاحقاق احقيته في الذيوع والانتشار أسوة بغيره من المذاهب والمعتقدات.

وفي مجمع نيفيه كتب له أخيراً الانتصار والغلبة بقوة الدولة وسلطانها ،لا بقوة العقل وسلطان الحجة والبرهان،فخلص المجمع إلى الاعتراف بصحة وسلامة المعتقد التأليهي التثليثي ، وبقرار رسمي عرف – وكما سنرى – بقانون مجمع نيفيه الذي حددت فيه الصيغة النهائية لملخص ما انتهى إليه الرسل،وأهم ما فيه قولهم:

" نؤمن بآله واحد الاب الابن والروح والقدس ،اله واحد جوهر واحد متساويين في القوة والمجد ."

إن طبيعة هذا الأله الواحد وكما ينص عليها القرار تظهره حاملاً لثلاث خواص أزلية ،أعلنها من جاءوا بعد بولس في صورة ثلاثة شخصيات (اقانيم) متساوية في

الجوهر والصفات. وان هذه الشخصيات مثلثة الأقانيم ليست الا حقاً سماوياً ،قدمت للناس في تفسيرات وشروح الآباء الانجليين واضحة المعالم، بحيث يمكن ايجاز هذه العقيدة وذلك المعتقد التأليهي في ست نقاط أرتكازية ،كل واحدة منها مكملة للآخرى.

1- ان هذه الشخصيات الثلاثة في مجموعها شخص واحد.
2- وعلى الرغم من هذه الوحدة ،فإن كل شخصية منفصلة عن الاخرى ومتميزة عنها ذاتاً ووجوداً.
3- أن هذا التثليث في طبيعة الله ليس عارضاً ولا مؤقتاً ،ولا هو في الوقت نفسه ظاهري، بل هو حقيقي وأبدي.
4- وعبارة التثليث لا تعني على الإطلاق ثلاثة آلهة ،بل ان هذه الشخصيات الثلاثة جوهر واحد.
5- ان الشخصيات الثلاثة الاب والابن والروح القدس شخصيات متعادلة أو متساوية ،وكل واحد منها مثل الآخر تماماً .
6- لا تناقض ولا أضطراب في هذه العقيدة ،فهي وحدها التي تقود لفهم وتصور باقي العقائد الاخرى للدين، أو بمعنى أدق هي المحور الذي تدور عليه كل معرفة بالله.

الباب الثاني
الإمبراطور قسطنطين

الفصل الأول
قسطنطين :الفم المتكلم بعظائم

راى دانيال نبي بني اسرائيل عام 533 ق.م ،وهي السنة الأولى لحكم الملك البابلي بيلشاصر رؤيا منامية ، وكان وقتذاك في أواخر الستينات من عمره ،وما أن اشرقت شمس اليوم التالي حتى اسرع إلى كتابتها وتوثيق وقائعها ، يقول فيها (دانيال 7 : 2- 14):

" شاهدت في رؤياي ليلا،وإذا باربع رياح السماء قد هجمت على البحر الكبير،وما لبث ان صعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة يختلف بعضها عن بعض:

فكان الأول كالأسد بجناحي النسر ،وبقيت أنظر إليه حتى أقتلع جناحاه ،وأنتصب على الأرض واقفاً على رجلين كإنسان وأعطى عقل إنسان.

ورأيت حيواناً أخر شبيهاً بالدب ،قائماً على جنب واحد، وفي فمه بين أسنانه ثلاثة أضلع ،وقيل انهض وكل لحماً كثيراً.

ثم رايت بعد هذا حيواناً آخر مثل النمر ،له على ظهره أربعة أجنحة كأجنحة الطائر ، وكان لهذا الحيوان أربعة رؤوس ،وفوضت إليه سلطات.

وشهدت بعد ذلك في رؤى الليل ،وإذا بحيوان رابع هائل وقوي وشديد جداً ذي أسنان ضخمة من حديد ،أفترس وسحق وداس ما تبقى برجليه ، وكان يختلف عن سائر الحيوانات التي قبله وله عشرة قرون.

وفيما كنت أتامل القرون إذا بقرن آخر صغير نبت بينها وأقتلت ثلاثة قرون من أمامه ،وكان في هذا القرن عيون كعيون انسان وفم ينطق بعظائم.

وفيما كنت أنظر نصبت عروش واعتلى الأزلي كرسيه وكانت ثيابه بيضاء كالثلج نوشعر رأسه كالصوف النقئ ،وعرشه لهيباً متوهجاً وعجلاته نار متقدة ، ومن امامه يتدفق ويجري نهر من نار ،وتخدمه ألوف الملائكة ،ويمثل في حضرته عشرات الألوف ،فأنعقد مجلس القضاء وفتحت الاسفار.

وبقيت اراقب القرن من جراء ما تفوه به من عظائم حتى قتل الحيوان وتلف جسمه وطرح وقوداً للنار ،أما سائر الحيوانت فقد جردت من سلطاتها ،ولكنها وهبت البقاء على قيد الحياة لزمن ما.

وشاهدت ايضاً في رؤى الليل، وإذا بمثل ابن الانسان مقبلاً على سحاب حتى بلغ الأزلي فقربوه، فأنعم عليه بسلطان ومجد وملكوت لتتعبد له كل الشعوب والأمم من كل لسان ،سلطانه ابدي لا يفنى وملكه لا ينقرض. "

وتفصيل حلم دانيال وشرحه على النحو التالي :

شاهد دانيال وهو واقف على شاطئ فلسطين (البحر المتوسط) الرياح الأربعة الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية، وهي تهب عليه بغتة ودون سابق أنذار ،ولم يمض على هبوبها سوى ثوان قليلة ،حتى اندفعت خارجة من البحر أربعة حيوانات كبيرة الحجم،ولكل واحد منها هيئة وشكل غير الذي للآخر.

- فالأول يشبه الاسد من فصيلة السباع اللبونة ،وعلى ظهره جناحان يشبهان جناحا النسر التي تساعده على الطيران عالياً ولمسافات طويلة ،وما لبثت تلك الاجنحة حتى انتزعت من جذورها ،ووقف على الشاطئ قائماً بأرجل تشبه من الفخذين إلى القدم تلك التي للإنسان ،وبدلاً من العقل المفترض أنه عقل حيوان ،منح عقل كالذي لبني آدم.

- والحيوان الثاني شبيه بالدب الهائم في المنطقة ،ضخم الجثة ،ولونه رمادي تغشاه صفرة، ورآه دانيال واقفاً على جانب واحد، أي منتصب القامة على إحدى رجليه،وتوجد في فمه وبين اسنانه عظام صغيرة قليلة الأنحناء ،وسمع من يحثه ويحركه على أكل أكبر كمية من اللحم ،أي المادة الحمراء الرخوة بين الجلد والعظم ،والأيأكل المادة البيضاء من الشحم والدهن.

- أما الحيوان الثالث فيناظر النمر ويماثله في لونه وشكله وضخامته ،ونبتت على ظهره أربعة اجنحة تشبه اجنحة الطيور السابحة في الهواء ،وتوجد في مقدمة جسمه أربعة رؤوس ،ومنح هذا الحيوان ليس فقط القوة والاقتدار ،بل ايضاً الحرية المطلقة في التصرف بها كيف شاء.

- وأما الحيوان الرابع فلا تحديد لهويته ولا نوعه وفصيلته ،بل هو مجرد وحش،شكله مخيف ،ومنظره يثير الفزع والرعب في القلوب ،وهو فوق ذلك متمكن وقادر على القيام بالأعمال الشاقة والصعبة، لا يناله في انجازها تعب ولا نصب.

وأسنانه في فمه كبيرة الحجم وحديدية ،لونها رمادي مائل إلى الزرقة ،ونتيجة لقوته الجبارة ومقدرته الهائلة على الفعل ،فهو يقضي ويهلك بكل يسر وسهولة على من يقف في طريقه ،ويتميز عن باقي الحيوانات بأن على رأسه نبتت عشرة قرون ،وكونه مرئية أمامه مباشرة يعني أنها داخلة ضمن دائرة الوحش الكاسر.

وبينما كان دانيال يمعن النظر مرة بعد الاخرى في تلك القرون العشرة، متحرياً عن آمرها ،ومتثبتاً من حقيقتها ،إذا به يرى قرناً ضئيل الحجم يبرز من بينها ،وينتزع ثلاثة قرون ليست من القرون العشرة ،الواحد بعد الآخر.

واللافت لنظر دانيال ان لهذا القرن الصغير عيون كعيون البشر، وفم يتكلم بصوت وحروف يؤدي إلى معاني بالغة الشناعة وشديدة القبح.

ثم تغير المنظر فجأة فرأى من اعتقد انه الحق عز وجل على سرير ملكه وملكوته، ملابسه في بياض لون اللبن والثلج ،ويعلو رأسه شعر صوفي خالص في نظافته ، أما سريره وقوائمه فقد احتدمت فيه النيران وتوقدت نقية لا دخان فيها ،وخالصة من الشوائب.

ورأى على بعد مسافة قصيرة مجرى كالذي يسير فيه النهر،ولكنه من نار تتدفق فيه تدفقاً فيه سرعة وشدة ،تماثل تلك التي للمياه الجارية في الأنهار ، ويقف على مقربة منه مئات الألوف من الملائكة ،وهم على أهبة الاستعداد لتلبية أوامره ، وبشكل هذا المشهد في مجموعه اجتماعاً للحكم أو الفصل في قضايا منصوص على عقوبتها في كتب بين ايديهم.

وغرابة المشهدين الأخيرين هي التي دفعت بدانيال إلى تثبيت نظره طويلاً على القرن الصغير مشدوداً إلى ما تلفظ به من عبارات وأقوال بالغة الشناعة والقبح ـوإلى ما نطق به من كلام لا يستصاغ عقلاً ،ولا يحتمله سامع ،وهو الذي تسبب في موت القرن وهلاكه،فرمى أو ألقى به في النيران ،كما تسبب أيضاً في موت الوحش،أما باقي الحيوانات فقد سلبت منها قوتها واقتدارها ،ولكنها تركت،أو تفضل عليها بالاستمرار في الوجود إلى فترة محددة الزمان.

وفي النهاية تطلع دانيال إلى أعلى فرأى من يشبه من سماه ابن الإنسان محمولاً على السحاب ،قادماً باتجاه الحق عز وجل ،ولما صار إلى جواره نهض بعض الملائكة ،فأدنوه منه ،فأعطاه منهجاً وشريعة – أي الوحي – مصحوبة بالاقتدار والرفعة والعز، وذلك ليتقيد بها الناس على مختلف اعراقهم ولغاتهم، ومنهجه وشريعته باقيين ابد الدهر،ودولته هي الاخرى باقية لا إنقطاع ولا نهاية لقوتها وسلطانها.

لما تفسير تلك الاحداث والوقائع فقد وردت في سياق الرؤيا نفسها ،وكانها جزء لا يتجزأ منها،فيروي دانيال قائلاً (7: 15 -21):

" أما أنا دانيال فقد ران الحزن على روحي في داخلي وروعتني رؤى رأسي ،فأقتربت من أحد الواقفين استفسر منه حقيقة الأمر ،فأطلعني على معنى الرؤيا قائلاً:

هذه الحيونات الأربعة هي اربعة ملوك يظهرون على الأرض ،غير ان قديسي العلي يستولون على المملكة ويمتلوكنها إلى ابد الآبدين.

حينئذ أردت أن أطلع على حقيقة الحيوان الرابع الذي كان يختلف عن سائر الحيوانات ،إذ كان هائلاً حداً ذا اسنان من حديد ومخالب من نحاس وقد افترس وسحق وداس ما تبقى برجليه ،وعن القرون العشرة النامية في رأسه ،وعن القرن الرابع الصغير الذي نبت ،فأقتلعت أمامه ثلاث قرون.

وهذا القرن ذو العيون الناطق بالعظائم ،ومنظره اشد هولاً من رفقاؤه ،وقد شهدت هذا القرن يحارب القديسين ويغلبهم إلى ان جاء الأزلي ،وانعقد مجلس القضاء الذي فيه تبرأت ساحة قديسي العلي،وأزف الوقت الذي فيه أمتلكوا المملكة ."

يعني ان رغبة دانيال قد انحصرت فقط في معرفة الحيوان الرابع المميز عن باقي الحيوانات والمنفرد عنها بصفات وأحوال لا نظير لها. وعلى وجه اخص القرون العشرة ،لا سيما القرن الصغير المتكلم بفظائع ،وذلك لانه رآه عدو حاقد، وخصم عنيد لعباد الله وأولياءه ،وقاهر لأرادتهم ،ولم ينقذهم منه الا المحكمة الكبرى التي قضت بأمرين:

- الأول :الإعلان عن سلامتهم بقرب حلول قيام دولتهم ودوام سلطانهم.
- والثاني :بشرت الناس بقرب حلول دولتهم ودوام سلطانهم.

لذلك أجابه قائلاً(7: 23 – 28):

" إن الحيوان الرابع هو رمز للمملكة الرابعة على الأرض ،وهي تختلف عن سائر الممالك ،لانها تستولى على كل الأرض وتخضعها وتسحقها ،أما القرون العشرة

من هذه المملكة فهي عشرة ملوك يتولونها ،ثم يقوم بعدهم ملك آخر يختلف عن الملوك السالفين. ويخضع ثلاثة ملوك ويعيّر العلي وينكل بقديسيه، ويحاول ان يغير الأوقات والقوانين ،فبذل القديسين ثلاث سنوات ونصف السنة.

ولكن ينعقد مجلس القضاء فيجرد من سلطانه ويدمر ويفنى إلى المنتهى، وتوهب المملكة والسلطان وعظمة الممالك القائمة تحت كل السماء إلى شعب قديسي العلي فيكون ملكوت العلي ملكوتاً ابدياً، وتعبده جميع السلاطين ويطيعونه.

إلى هنا ختام الرؤيا ،أما أنا دانيال فقد روعتني أفكاري كثيراً وتغيرت هيئتي ، ولكني كتمت الأمر في قلبي. "

وعلى هذا فإن الحيوانات الأربعة تمثل أو ترمز إلى أربع أمبراطوريات كبرى تسود العالم، وتهيمن على مقدرات الخلق، الا ان الحلم يكشف فقط عن جوانبها الإخلاقية والسلوكية ،أو بمعنى أخر يلقى الضوء على شرورها ومفاسدها ووحشيتها وقسوتها على عباد الله وبطشها بهم، وعلى نحو ما تفعله الوحوش الضواري بضحاياها.

فالأسد اشارة إلى الامبراطورية البابلية المشهورة بنصبها لتماثيل الأسود المجنحة في بابل العاصمة، وكانت تشبه بالفعل الاسد في قوته ونشاطه وجرأته واخلاقه ، وترمز بجناحي النسر إلى فتوحاتها السريعة وانقضاضها المباغت على أعدائها ، وبما ان الاسد هو ملك الحيوانات ،فلذلك الدولة البابلية تأتي وبلا منازع على رأس الممالك والدول التي سادت العالم القديم.

وفوق ذلك فقد عرف البابليون بشدة البأس والإقدام وكان صليل سيوفهم وصيحات فرسانهم تملأ قلوب أعدائهم خوفاً وفزعاً ،أما أصوات مركباتهم فكانت كرعد قاصف ،وقلما حاقت بهم هزيمة ،أو اخفقوا في معركة من معاركهم،ولا غزوة من غزواتهم على كثرتها وتعددها.

وأشتهر فرسانهم بالبسالة والنجدة ،وأمتاز جنودهم بدقة رميهم للسهام، وطعنهم بالرماح وضربهم بالسيوف، يندفعون إلى الحرب بكبرياء ،وكالنسر المسرع للإنقضاض على فريسته ،يتسابقون جميعاً ليعبثوا في الارض فساداً ،أما خيولهم فأسرع من النمور ،وأشد ضراوة من الذئاب،يجمعون أسراهم كالرمل ،يهزأون بالملوك ،ويسخرون من الحصون ،يستولون عليها،ثم يجتاحون المدن كالريح ،ثم يرحلون .

أن قوة البابليين كما وصفها حبقوق (10:1):

" هي الهمم".

غير انها قوة كقوة البشر ،تقف على قدمين ورجلين وتتصرف بعقل وروية وذكاء واقتدار.

فحيثما توجهوا توجه الظفر والغلبة معهم ،وحيثما ساروا سار معهم الرعب والفزع الذي يغمر قلوب الناس قبل وصولهم ،وهابتهم بسببه جميع الأمم الذين كانوا يرون شرب السم والموت أهون من ملاقاة تلك الجيوش الجرارة ،ويعاملون الأسرى والمسبيين بفظاظة وقسوة لم يسبقهم إليها أحد من الناس.

أما الدب فيمثل مملكة مادي وفارس المتكونة أصلاً من جنسين ،ويرمز بوقوفه أوقيامه على جنب واحد إلى سيطرة العنصر الفارسي على العنصر المادي، لأن الماديين انحدروا من جنس عريق في القدم، وكانوا في بادئ الأمر الجنس المهيمن ،ولكن بعد ذلك صارت الهيمنة من نصيب الفرس.

وترمز الأضلع الثلاثة في فم الدب إلى القوة الرئيسية الثلاث التي هزمت وزال سلطانها من قبل الفرس والماديين ،أي ليديا وبابل ومصر، والخطاب المباشر للدب بأكل اللحم بكثرة ،فإشارة إلى أن حدود فارس زادت في المساحة والإتساع عن حدود بابل خاصة في اتجاه الشرق الشمال.

ومع هذا وذاك فإن الإمبراطورية الفارسية هي أقل شراسة وقسوة ووحشية من الإمبراطوريات الأخرى، وذلك لشدة ارتباطهم بالدين الزرادشتي، وقوة تمسكهم به، حتى طغت سمة التدين على حياتهم كلها ،وغدا الدين هو المظهر الروحي للأمة بأسرها ،فتفوقوا على غيرهم بالأخلاق والمثالية وحب الخير.

لأجل هذا طغت العوامل الإنسانية على مسلكهم وفي تعاملهم مع الشعوب المغلوبة والواقعة تحت قبضتهم ،فشبهوا بالدب الذي يتقوت عادة بالأعشاب والخضروات والعسل والتوت،ولا يقبل على الدماء واللحوم الا إذا اضطرته الحاجة الشديدة إليها ،عندئذ يغدو خطره عظيماً ورغبته في الإفتراس ضاربة واشد قسوة وشراسة .

ويرمز بالنمر إلى الإمبراطورية المقدونية تحت قيادة الإسكندر المقدوني، وكانت بالفعل تشبه النمر في خبثه وسرعته الفائقة وقدرته الكبيرة على التسلق والحركة بخفة ورشاقة ،والأجنحة الأربعة تشير إلى سرعة أضافية فوق سرعته المألوفة ،حيث تمكن المقدونيون في فترة أربع سنوات ما بين عام 334 ق.م وعام 330 ق.م من إحكام سيطرتهم على معظم العالم المتحضر حينذاك وهي فترة لا مثيل لها في التاريخ .

كما ان الأسكندر نفسه وهو قائد تلك الفتوحات قد وصل إلى العظمة والسيادة بسرعة لم يسبق إليها ،إضافة إلى ان عبقريته في التخطيط ،وبراعته القتالية قد تجلت في خفة حركته وسرعة انقضاضه ،فكان لا يؤخر توقيت المعركة قط ،بل يقوم بها في حينه ،ولأجل ذلك كانت الجيوش الجرارة التي تصدت لمقاومته وكسر حدة اندفاعه تذوب أمامه مثل ذوبان الثلج تحت أشعة الشمس الحارة.

وأتصف الاسكندر بصفتين من ابرز صفات النمر وهما الخبث وشراسة الطباع، فهو وعلى الرغم بما عرف عنه من خلق كريم ونبل وإرادة صلبة ،إلا انه كان عاطفياً شدسد الإنفعال ولا يتورع عند اشتداد غضبه من القيام بأعمال ارتجالية، راح ضحيتها الالوف من البشر،لا يستثنى منهم احد ،لا النساء ولا الأطفال الرضع ،هذا غير من أمر ببيعهم في أسواق النخاسة.

أما الرؤوس الأربعة فوق رأس النمر فتشير إلى انقسام المملكة المقدونية عام 301 ق.م ،أي بعد وفاة الإسكندر بأثنين وعشرين عاماً ،بين قواده الكبار:

- فاستولى كاسندر على مقدونيا واليونان الواقعة إلى الغرب.

- وليميافوس على القسم الشمالي للإمبراطورية الذي يتكون من تراقيا والجزء الشمالي من آسيا الصغرى.
- واستولى سلوقس على سوريا وبقية أملاك الإسكندر في الشرق.
- وأما بطليموس فأستولى على الأقسام الجنوبية للإمبراطورية التي ضمت مصر وفلسطين وبلاد العرب.

بيد ان دانيال لم يتوقف ليسأل من كان يقف إلى جواره في الحلم ،ليشرح له با لتفصيل مآل الممالك والإمبراطوريات الثلاثة الأخرى ،بل اراد معرفة حقيقة الوحش الرابع،وذلك لأنه لفت نظره إلى غرابته وشذوذه ومخالفته سائر الحيوانات الأخرى ، في صفاتها وأحوالها ،فهو أكثر ضخامة وأشد قوة وبطشاً ممن سبقه وأسنانه من حديد وأظافره من نحاس ومولع بسفك الدماء ،وله عشرة قرون في رأسه إلى غير ذلك مما سبق تفصيله.

وذلك الوحش بتلك التفاصيل المرعبة والمثيرة للفزع تشير مباشرة إلى الأمبراطورية الرومانية التي كانت بالفعل في تعاملها مع الاغيار مخيفة وفائقة القوة ،داست وحطمت بوحشية كل المجتمعات السياسية القديمة ،وكانت مقاومتها أو الوقوف في وجه طموحاتها يعني الموت المحتم.

غير أن قسوة الرومان وجشعهم تمثل في استغلالهم البشع وغير الإنساني لثروات الناس بالنهب تارة ،وبالضرائب الفادحة تارة اخرى ،وبها ازدهرت مدنهم وحواضرهم ،وذلك لأنهم كانوا يعتبرون كل البلاد التي آلت إليهم بالفتح ملكاً للدولة الرومانية ،يمتلكها أصحابها الحقيقيون على أنها منحة لهم من قبل الإمبراطورية.

يقول شيشرون في وصفه لأبناء جلدته ولشرورهم التي لا مثيل لها في التاريخ.

" ان كل الولايات تندب حظها ،وجميع الأحرار يصرخون ويولولون ، وجميع الممالك تحتج على قسوتنا وشرهنا، وليس ثمة مكان فيما بين المحيطين مهما يكن قاصياً أو خافياً لم يشعر بوطأة ظلمنا".

أما القرون العشرون البارزة في الوحش فإشارة إلى عشرة إضطهادات تعرض لها النصارى على إيدي عشرة إباطرة من إباطرة الرومان في الفترة ما بين عام 64م وعام 313م.

ويأتي الإمبراطور نيرون (54 – 68م) على راس هؤلاء العشرة ،فهو اول من أصدر مرسوماً إمبراطورياً ينص على أن اعتناق النصرانية أو الجهر بها يعد خيانة عظمى وجريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام ،ونفذ المرسوم فور صدوره وعلى نطاق واسع في أنحاء البلاد ،وكانت تلك بداية تعذيب وقتل الرومان للنصارى.

يروي أحد ولاة الرومان في رسالة بعث بها إلى صديق له عن كيفية تنفيذه للمرسوم قائلاً:

" إن الطريقة التي اتبعتها مع من أتهموا أمامي أنهم مسيحيون هي هذه ، لقد سألتهم هل هم مسيحيون؟ فإذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى،

وأنذرتهم في الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا اصروا على قولهم ، فإذا أصروا أمرت بقتلهم ."

وبهذه الطريقة راح المئات من النصارى ممن ثبتوا على دينهم ،وتمسكوا بعقيدتهم ،ولم يستجيبوا لمحاولة اقناعهم أو نصحهم بتقديم فروض التعظيم للألهة الرومانية، من اشهرهم في تلك الفترة الرسولان بطرس وبولس.

وثاني أباطرة الاضطهاد هو دومتيانوس (81 – 96م)،الذي استغل احدى الثورات فأنزل بالنصارى من العذاب والإذلال في السجون ما فاق التصور ،ولأول مرة يستشهد الكثير من أشراف روما تحت وطأة التعذيب،كما ذاق يوحنا الأنجيلي آلام الحرق بالزيت الحامي ،ونفي إلى جزيرة باتموس، ونفي ايضاً كثيراً من النصارى من روما ممن كانت اتهاماتهم لا ترقى لمستوى التعذيب أو القتل ، ثم لم يلبث أن اوقف الامبراطور ما بدأه من اضطهاد.

وفي عهد تريانوس (98 – 117م) ثالث أباطرة الاضطهاد قتل اسقف انطاكية في روما سنة 107م ،ولقى اسقف اورشليم القديس سمعان حتفه مصلوباً في السنة نفسها، وأعدم كثيرون في بيثينية ومقدونيا ، وكتب طيباريوس حاكم فلسطين إلى الامبراطور يقول:

- ان المسيحيين في انطاكيا ازدحموا مستميتين في سبيل الرب.

ويختلف هارديان (117 – 138م) رابع مضطهدي النصارى عن غيره في أن عقله كان يتسع لقبول الآراء ومختلف الأفكار ، فأمر القائمين على تنفيذ مراسيم الاضطهاد بتفسير كل شك لمصلحة المسيحيين ، ولا يشتطون في تعذيبهم.

أما خليقته انطونينوس بيوس (138 – 161م) والخامس في قائمة المضطهدين فكان أكثر منه استمساكاً بدينه ،فقد أباح اضطهادهم أكثر من هارديان ، وحدث في ازمير ان طالب الغوغاء فليب حاكم ولاية آسيا الا يتهاون في تنفيذ المرسوم الإمبراطوري ،فأجباهم إلى ما طلبوا ،وأمر باعدام احد عشر من المسيحيين في المجتلد .

كما أخذوا يطلبون باعدام الاسقف بوليكاريوس اسقف ازمير ،وهو اب ورع في السادسة والثمانين من العمر، وقد وجد الجنود الرومان هذا الشيخ في بيت بضاحية من ضواحي المدينة فجاءوا به إلى الوالي وهو يشاهد الألعاب ،فأمر سيافاً ان يجهز عليه بسيفه ، ففعل.

وخلف ماركوس اوروليوس الورع (161 – 180م) وهو الأخر انطونيونس ليصدر سادس مرسوم امبراطوري يأمر فيه بالقبض على زعماء المسيحيين في ليون ،حيث مات الأسقف بوثينس ،وهو شيخ في سن التسعين في السجن من آثار التعذيب ،وأرسل والي ليون إلى روما ليسال الأمبراطور مما يشير عليه في معاملة سائر المسيحيين ،فاشار ماركوس بأطلاق سراح من ينكر الدين المسيحي ،وقتل من يعتنقه كما يقضي بذلك المرسوم.

وفي ليون وبينما كانت الاحتفالات تجري على قدم وساق جئ بالمسيحيين المتهمين إلى المدرج ، ووجهت إليهم الاسئلة ، فمن انكر أخرج من المدرج ، واصر سبعة وأربعين على الاستمساك بدينهم فقتلوا بعد ان ذاقوا من الوان العذاب ما لا مثيل له.

من ذلك ان الأسقف اتلس أرغم على الجلوس على كرسي من الحديد المحمى الذي شوى جسمه وأزهق روحه ،وظلت بلنديا وهي امة صغيرة السن تعذب يوماً كاملاً ،ثم ربطت في زكيبة والقيت ليفتك بها ثور وحشي ،وتحملت عذابها وهي صامتة.

وقتل في روما نفسها سنة 165 م القديس يرسينوس النابلسي الفيلسوف المعلم واستشهد ايضاً أسقف اثينا،وحكم على الكثيرين بالعمل الشاق في المناجم.

وعلى عهد الإمبراطور سيتسيوس سقيرس 0193 – 211م) سابع اباطرة الاضطهاد ،كان التعميد نفسه يعد جريمة تستحق العقاب، وفي عام 203م استشهد كثيرون من المسيحيين في قرطاجنة وذلك بالقاءهم إلى الحيوانات المفترسة في مدرج المدينة الكبير ،ومن هؤلاء أم في مقتبل العمر تدعى بريتوا ،فقد القيت هي وام شابة اخرى إلى أحد الثيران الوحشية ، أما في مصر فملأ السجون بالنصارى ،ودفع ببعضهم إلى الجلادين في الإسكندرية.

ولعل الإمبراطور ديسيوس(249 – 251م) ثامن المضهدين هو أول من ابتدع سياسة الإبادة الجماعية للنصارى ،ففي علم 250 م أصدر مرسوماً يطلب من جميع سكان الإمبراطورية أن يتقدموا بالقرابين الوثنية علناً لالهة الدولة وللإمبراطور ، وجعل الموت عقوبة من يرفض ذلك ،فأرتد عن الدين عدداً من الأغنياء والوجهاء واستشهد في سبيله عدد كبير من المؤمنين.

ومن بين هؤلاء اوريجانوس اللاهوتي الذي سجن في قيصرية وعذب ومات من جراح في صدره ،والكسندروس أسقف اورشليم وبابيلاس أسقف انطاكية، وأعدم كل من اسقف روما وتولوز ،والقى بالمئات في السجون ،وقطعت رؤوس بعضهم ومات الكثيرون منهم على قوائم الأحراق ،والقى بعدد قليل منهم إلى الوحوش في حفلات الأعياد.

وسار الإمبراطور فاليريانوس (253 – 268م) تاسع اباطرة الاضطهاد على طيرقة ديسيوس حيث أصدر مرسوماً يحظر كل الاجتماعات المسيحية ،وفرض عليهم تقديم الشعائر الوثنية ،وكان الموت جزاء من يوجد مجتمعاً مع غيره ،سواء في المقابر أو محلات العبادة.

وعصى البابا سكتس هذا الأمر فأعدم هو وأربعة من شمامسته ،وكذلك فقطع رأس كيريانوس أسقف قرطاجنة ،وحرق أسقف طراقوتة حياً ،وداهمت قوات من الجند القديس ترسيسيوس وجماعة من المؤمنين وهم يصلون في سرداب ،فاشعلوا فيهم النار فماتوا خنقاً.

وفي العام الثاني لحكمه أصدر مرسوماً أخراً لمحاكمة الاساقفة والكهنة والشمامسة ،وجعل عقوبة معصيته لكل واحد حسب موقعه الكهنوتي ، إ ذا ما أصر على

عقيدته ولكن اضطهاد فاليريانوس كان محدوداً وانتهى بمأساة هزيمته على يد الفرس عام 259م .

ويختلف الإمبراطور دقلديانوس (285 - 307م) آخر أباطرة الاضطهاد في ان اضطهاده للنصارى كان اضطهاداً بالغ القسوة ، وأطوله (8 سنوات) وتم بصورة بطيئة وتدريجية ، فتقرر في البداية تطهير البلاط والجيش والإدارات الحكومية من النصارى ،وإقصاء كل من يرفض تقديم الذبائح الوثنية.

ثم اصدر اربع مراسيم متعاقبة في عام _303 و304م) حظر فيها الاجتماعات المسيحية ،وهدم الكنائس ،وعاد مرة اخرى فأمر بسجن الكهنة وأعدامهم إذا هم ابوا الاشتراك في الذبيحة الوثنية.

أما تعذيب من يرفض الارتداد عن دينه فقد كان مروعاً ، إذ يروى ان الناس كانوا يجلدون حتى تنفصل لحومهم عن عظامهم ، أو ان لحمهم كان يقشر عن عظامهم بالأصداف ،وكان الملح أو الخل يصب على جروحهم ،ويقطع لحمهم قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة في انتظارها ، أو يشدون إلى الصلبان فتنهش لحومهم الوحوش الجياع جزءاً جزءاً ،كما كانت تدق عصا حادة الأطراف في أصابع الضحايا تحت أظافرهم ،وسملت اعين بعضهم ، وعلق بعضهم من يده أو قدمه ،وصب الرصاص المصهور في حلوق البعض الآخر ،وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا ، أو ضربوا بالعصى الغليظة حتى فارقوا الحياة.

وبرز من بين الأباطرة العشرة أو القرون العشرة قرن أو امبراطور صغير القدر والمنزلة ، إذ قورن بمن سبقوه ، عمل على تحطيم ثلاثة أباطرة على التوالي.

وهذا الأمبراطور بلا شك حقاً وواقعاً هو قسطنطين الذي كان يحكم مع ثلاثة اباطرة الامبراطورية الرومانية، وذلك بموجب قرار اتخذه دقلديانوس عام 292م، وبه قسمت الدولة بين اربعة حكام لكل واحد منهم جزءاً يحكمه ويديره من عاصمة له ، وهؤلاء هم:

ماكسيمانوس وماكسنتيوس وليسنيوس وقسطنطين.

وتفجر الصراع بين الاباطرة الاربعة عقب مؤتمر كارنونتوم والذي عقد أصلاً لتلافي انهيار السلطة الرباعية والحفاظ على ما فعله دقلويانوس ،و اسفر المؤتمر عن وجهات نظر مختلفة ومتضاربة ، لتفتح الباب على مصراعيه للحرب الأهلية.

وبعد انتهاء ذلك المؤتمر مباشرة غادر قسطنطين مقره ليقوم بحملة رادعة ضد الفرنجة عام 310 م، فانتهز ماسكميانوس الفرصة وأعلن امبراطوراً في مدينة ارليس، ولما سمع قسطنطين بما حدث عاد وهو غاضب ،وضرب الحصار حول قواته، وراح يطارده حتى استسلم في مارسيليا ،ولما وجد ماسكيميانوس ان الطريق أمامه مسدود شنق نفسه في حجرته، وبذلك خرج من الصراع واحد من أكبر أقطابه.

أما نهاية ماكسنتيوس فتعود أسبابها ودوافعها إلى مؤامرة حبكت بينه وبين ماكسميانوس ، فرأى قسطنطين أن يكون هو البادئ بالعمل ، فزحف على روما بسرعة

مدهشة ونظام عسكري دقيق ،والتقى في السابع والعشرين من شهر أمكتوبر عام 312 م بقوات ماكسنتيوس عند مكساربرا (الصخور الحمراء) التي تبعد تسعة أميال عن روما من جهة الشمال.

وافلح قسطنطين بخططه الفائقة الروعةان يرغم عدوه على أن يقاتل ونهر التيبر وراءه ، وليس من طريق يسلكه إذا تقهقر إلا أن يعبر جسر ملفيوس الذي كان قائماً على النهر ،ومهما يكن من شئ فقد انتصر قسطنطين في واقعة الجسر ،وقتل ماكسنتيوس هو وآلاف من جنوده، ودخل القائد الظافر و روما ،فحيته المدينة بأسرها وبذلك أصبح سيد الغرب بلا منازع .

وبهزيمة ماكستنيوس القاسية أصبح كل من قسطنطين وليسنيوس حاكمى أمبراطورية لا ينازعهما فيها منازع ، الأول في الغرب ،والثاني في الشرق ،وأغلب الظن ان سياسية ليسنيوس العدوانية إزاء النصارى هي التي اغضبت قسطنطين ،فراح يتحين الفرصة للتخلص منه، وجاءته الفرصة عندما هاجمت قبائل القوط منطقتي ميسيا وتراقيا عام 323م ،فاضطر إلى المرور عبر الولايات التابعة له فأحتج الأول على هذا التصرف.

وكان قسطنطين ينتظر هذه الحرب ،فسرعان ما بدأت المناوسشات في صيف عام 324 م عندما هزم قوات ليسنيوس قرب هادوريا نوبوليس ، بعد ذلك عبر البسفور ليقضي على البقية من جيش عدوه الذي استسلم وكاد ان يقتله لولا تدخل زوجته، فعفى عنه ونفاه إلى سالونيك ،ولكن لم تمض ستة أشهر حتى أصدر قراراً بإعدامه بحجة أنه مازال يتامر عليه.

وهكذا أصبح قسطنطين الأمبراطور الأوحد على كافة ولايات الأمبراطورية وتوحدت تحت أمرته الأمبراطورية الرومانية لأول مرة منذ أربعين عاماً،وأصبح شعاره الجديد:

حاكم واحد،وعالم واحد،وعقيدة واحدة.

فأنفرد قسطنطين وحده بحكم الامبراطورية الرومانية بعد إزاحته ثلاثة متنافسين من امامه ،الواحد تلو الأخر ،تماماً مثلما تساقطت في الحلم القرون الثلاثة أمام القرن الصغير .

أن جميع الأباطرة الذين أضطهدوا النصارى وإذاقوهم ويلات السجون والعذاب ، كانوا يمثلون قوى هوجاء بلا عقل وبلا تبصر، أما قسطنطين وكما يصفه الحلم فكان له فم بشري وعينان أي كان يملك العقل والمنطق والقدرة على الكلام والمحاجة والجدال. فبدلاً من أضطهاد النصارى (قديسوا العلي)،أعترف بالديانة النصرانية، وترك القسم الغربي للأمبراطورية لغيره ، وجعل من بيزنطة عاصمة ومركزا لدولة جديدة.

وأخيراً تظاهر بأعتناق المسيحية ،وذلك لإدخال التحريف في حقيقة الايمان ، وليلحق بوحدانية الله من التشويه والتقبيح مالم يسبقه إليه أحد من البشر ،ولهذا قيل عنه في الحلم أنه متكلم بعظائم ،ونسب العار إلى الله وقبح فعله ،وتكلم ضده. أي انه تفوه ونطق بكلام تفوح منه رائحة الكفر.

وأكبر شاهد على ذلك ان الخلافات المحتدمة بين النصارى حول قضايا العقيدة والعبادة ، وكانوا وقتها يشكلون الغالبية العظمى من مواطنيه ،هي التي دفعته إلى دعوة كل ممثلي الجماعات الكنسية لمجمع عام ،وذلك لمعالجة كل قضايا الجماعة ومشكلاتها العالقة ،وعلى رأسها الأتفاق على عقيدة واحدة ،بدلاً من أفتراقهم إلى جماعتين ،تعتقد الأولى بوحدانية الله تعالى واحديته، في حين تؤمن الثانية بألوهية عيسى عليه السلام.

وأضافة إلى ذلك كله وكما جاء في تفسير الحلم ،فإن الامبراطور قسطنطين سعى أيضاً إلى تغيير الأوقات والقوانين ، أي السنن السابقة والأيام المقدسة والأعياد المقررة، يصف عبد الأحد داود أثناء حديثه عن ذلك الانقلاب الهائل على عقيدة التوحيد ما فعله قائلاً:

" ماالذي يمكن أن يكون أكثر مدعاة للاشمئزاز من استبدال عيدالفصح اليهودي بالتضحية بحمل الرب على خشبة الصليب ،وعلى آلاف المذابح كل يوم ،إن القاء السبت كان خرقاً للوصية الرابعة من الوصايا العشر ،كما أن إدخال يوم الأحد كان تعسفياً وعدائياً معاً.

إلغاء السبت كان بموجب مرسوم من قسطنطين من اجل اعتماد الأحد ،الذي يزعم ان عيسى عليه السلام خرج فيه من القبر، وكان عيسى نفسه يتقيد بدقة بأحكام يوم السبت ،ووبخ الزعماء اليهود لانهم أعترضوا على تقديم الصدقات في ذلك اليوم."

وعلى أي حال فقد بلغ تحريف قسطنطين للايمان المسيحي وتشويه حقيقته درجة من الفظاعة والقبح ان الله تعالى وكما رأى دانيال في منامه ،نزل بذاته العلية مع الألوف من ملائكته الأطهار ليحاكمه محاكمة أقرب إلى المحاكم الشخصية، وليقضي على الخلاف بين الموحدين والتثليثين قضاء مبرماً لا راد له ، ولا مجال للمنازعة حوله،في اشارة رمزية إلى ما جاء به الوحي المنزل على محمد ﷺ من أحكام قاطعة في العقيدة المتفق عليها في مجمع نيقيه ،والمؤيدة بقرارات ومراسيم الأمبراطور قسطنطين.

وأخيراً ختمت الرؤيا بحقيقتين:

أولهما : يبعث المصطفى ﷺ الملقب بابن الانسان والمقرب من الله منزلة ومكانة بدين ورسالة وشريعة هادية إلى طريق الحق والخير والسعادة ، وفيها الخلاص من حجيم الكفر،وقادرة على اقتلاع الوثنيات السائدة بين امم العالم.

وثانيهما: إن الموصوفين بشعب قديسي العلي هم اتباع محمد ﷺ وعباد الله وأولياءه من المؤمنين الذين يحملون دينه الخاتم وشريعته السمحة للناس اجمعين ،وهؤلاء وحدهم هم الذين يقيمون مملكة الله الدائمة على الأرض،والتي هي دين ومجتمع قوي من المؤمنين بالآله واحد لا شريك له ،ومسلح بالأيمان والسيف للقتال عن وجودها واستقلالها ضد أولئك الذين لا يؤمنون بوحدانية الله.

الفصل الثاني
عقيدة مجمع نيقية

شكل التوحيدون وعلى أمتداد القرون اثلاثة من مبعث عيسى عليه السلان غالبية المجتمع المسيحي ،وكان التوحيد نفسه كمعتقد وعقيدة قوياً ومنتشراً ومستقراً بين كافة ابناء المجتمع بدءاً من المفكرين والفلاسفة والأدباء ،أنتهاءاً بعامة الناس، كما كانت الجماعة الموحدة بالله تعالى والمؤمنة بعيسى نبياً وبشراً رسولاً ذات حضور دائم وتحظى بالقبول لسلامة ايمانهم وخلوه من التعقيد وبساطته ومعقوليته ، وسهولةالأقتناع به.

أما التأليهون فكانوا وعلى امتداد تلك الفترة من الزمان أقلية ذات وزن معتبر بين الموحدين في الشرق اللاتيني ، في حين كانوا يشكلون الأكثرية في الغرب اللاتيني ،وكان الخلاف الجوهري بينهم، أو المشكلة التي أدت إلى أتساع الأنشقاق والانقسام بينهم ، تدور حول شخص المسيح عليه السلام ، أو كما بينا من قبل العلاقة بين الله وعيسى،هل هو إنسان وبشر، أم هو بمنزلة الابن لله لكونه مخلوقاً من غير اب ،وبكلمة منه تعالى.

وبحلول عام 324م كان الخلاف بين الموحيدن والتأليهين قد بلغ من التباين والتضارب والتنازع ما لا يمكنهم ولو في الحدود الدنيا من الاتفاق .مما يعني عملياً انتقاله من مجرد خلاف فكري أو عقدي ،يقف كل منهما ضمن دائرة قناعاته الشخصية ،ودون التهوين أو الانتقاص من الآخر ،إلى صراع مكشوف يسعى كل فريق إلى التغلب على الآخر واقصاءه من الوجود .

ثم دخل الصراع بعد هذا منحى خطير وذلك حين اصدر أساقفة الأسكندرية برئاسة البطريرك السكندروس قراراً بطرد أريوس رئيس واسقف الجماعات الموحدة في الأسكندرية من الجماعة المسيحية ولعنه وحرمانه ،في سابقة ليست معهودة في الصراع بين الفريقين، مستشهداً أو محتجاً في هذا بمقولة الأسقف بطرس:

" ان الله لعن اريوس فلا تقبلوه ولا تدخلوه الكنيسة"

وعلى الفور ابلغ القرار والإجراءات المتخذة في حقه إلى سائر الأساقفة في المنطقة،وتبع ذلك هجوم واسع استهدف الموحدين من أتباعه ،أستولوا فيه على مجالسهم الاسقفية في أنطاكية وقيصرية وغيرها ، كما نظموا في الوقت نفسه عدة اجتماعات للتنديد بما أسموه بدعة أو هرطقة أريوس. وتنفير الناس منها، مما رفع من حدة الخلافات بين رجالات الدين والدنيا في أغلب ولايات الأمبراطورية الرومانية.

وكان رد التوحيديون على تطاول التأليهين وأحكامهم الجائرة سريعاً وقوياً، لم يقتصر فيه اريوس الحامل للواء الوحدانية على الكتابة وحدها لبيان حقيقة معتقدهم ، بل قصد مراكز الثقل في المجتمع المسيحي فزار كل من قيصرية فلسطين ونيقوميدية وانطاكية ،وغيرها داحضاً قرارات التأليهين بخطبة ومواعظة ،فلقى استجابة واسعة ممن يشاركه في الرأي والمعتقد ،مما دعاه إلى تأليف نشرة سماها ثالية Thalia ضمنها

وباسلوب بسيط آراءه المعروفة .وفند فيها اعتقادات خصومه المعارضة للعقل والدين ، فراجت بين الناس رواجاً واسعاً.

عندئذ كتب السكندروس هو الآخر رسالة مدافعاً عن معتقده إلى عدد كبير من الأساقفة خارج الاسكندرية شمل أسقف روما وانطاكية وقيصرية فلسطين وأورشليم وحلب وغزة وعسقلان ،وإلى عدد آخر من الأساقفة يقدر عددهم بواحد وستين أسقفاً، يدعوهم إلى ضرورة وحدة الجماعة ،ووجوب تبادل الرأي في معالجة الشرخ الذي أحدثه أريوس بينهم.

وأيا ما كان الامر فقد احدثت ردة فعل التوحيديين ما يشبه الثورة في المجتمع، فتراشق الخصمان بالاحكام تارة،وبالقطع والحرمان تارة أخرى، وكثرة كتابات التوحيدين ونشراتهم الدعائية متساوقة مع كثرة الردود عليها ،وجمعت لشدة أقبال الناس في مجموعات تسهيلا لإطلاع عليها.

واستمر الحال هكذا ما بين شد وجذب إلى ان إنعقد مجمع محلي في نينومبديه انتهى إلى قرارات برأت التوحيدين من كل التهم الموجهة إليهم ،ورفعت عنهم كل احكام السكندروس ، فتسلح بها أريوس وعاد وجماعته إلى الاسكندرية منطلق دعوته فدخلها دخول الفاتحين ، وعلى اثرها نظم المؤيديون له الأزاهيج والترانيم تغنى بها الفاس من جميع الطبقات ،وشاعت بين العامة فردودها في الاسواق والشوارع والساحات العامة واماكن اللهو.

ولما تأزم الخلاف بين الفريقين ، واخذت المشادات والمناقشات تنمو وبصفة مستمرة منحى شعبياً ، وطابعاً عاماً ،يمكن إذا ارتفعت حدته أن تتسبب في تهديد السلم الاجتماعي ،وربما أفضت إلى حرب أهلية وفوضى تطال الجميع.

عندها تدخل الامبراطور قسطنطين وأرسل إلى كل من أريوس والسكندروس رسالة شخصية ،ذات طابع عاطفي ونبرة خطابية و بلا إدراك حقيقي لأبعاد الخلاف العقدي بين الأتجاهين، حملها مستشاره الديني هوسبيوس أسقف قرطبة يحثهم فيها على وقف المهاترات والجلوس معاً للتفاهم والوصول إلى اتفاق يجنب الناس ويلات التشتت والتمزق. ملمحاً في ثناياها إلى وجوب طاعة رئيس الامبراطورية ، ونص الرسالة:

" ياللعناية والمجد الألهي ،ماهو الجرح الذي لم يصب اذني فقط ، بل اصاب قلبي عندما علمت أن الانشقاقات التي حدثت بينكم كانت أكثر شدة مما حدثت للشعب في افريقيا لدرجة انكم أنتم يا رجال الدين تطببون جروح الآخرين تحتاجون إلى علاج أكثر مما يحتاج الشعب نفسه.

ما يمكن لي ان أفعله من واقع خبرتي الدائمة كامير بعد قذف الآخرين بالاخطاء ، وإزالة معتقداتهم الخاطئة هو ان أجعلهم يتبعون الدين الحقيقي ، وبساطة الحياة وان يقدموا لله القدير العبادة التي يستحقها.

لقد أقترحت أن ارد جميع آراء الناس في الله إلى صورة واحدة، لاني قوى الاعتقاد بأني إذا استطعت أن أوحد آراءهم في هذا الموضوع سهل علىّ كثيراً تصريف

الشئون العامة ، ولكني مع الأسف الشديد اسمع بينهما من الخلاف اكثر مما كان قائماً في افريقيا من وقت قريب.

وبعد الفحص الدقيق لسبب كل هذه المجادلات ، أجد ان الخلاف بينكم صغير تافه غير ذات معنى، وغير جدير بأن يثير هذا النزاع الشديد ،وأن أفهم أن الجدال الحالي كان سببه ما يلي:

فأنت يالسكندروس تريد ان تعرف قساوستك في احد النقاط القانونية ،في جزء من سؤال هو في حد ذاته عديم الاهمية وم انت يا أريوس كان يجب عليك إذا كانت لديك أفكار من هذا القبيل أن تظل صامتاً ، ولم يكن ثمة حاجة إلى إثارة هذه المسائل امام الجماهير ، لأنها مسائل لا يثيرها الا ما ليس لديهم عمل يشغلون به انفسهم ، ولا يرجى منها الا أن تزيد عقول الناس حيرة ، تلك أعمال سخيفة خليقة بالاطفال عديمي التجربة ،لا برجال دين أو العقلاء من الناس.

وبدون أي تفكير وضعت مقدمات لا يمكن تصورها على الإطلاق ، أو حتى لو تصورت فإنها عرضة للزوال ،فنشأ خلاف بينكم ، ولم تتحدد آراؤكم.فنتج عن ذلك تمزق الناس، فالأخ واخوه على خلاف ،ولم تعد وحدة المجتمع قائمة.

إن هذا الموضوع لا ينبغي ان يطرق ،لان المصائب تكمن بين الأيدي الآثمة التي تسأل ذلك ، ، والعقول الآثمة التي تفكر في ذلك ،والخلافات بينكما ليست بسبب أي مذهب ديني في الكتب المقدسة ،ولا بسبب أي مذهب جديد في المسيحية ،وانكما لتؤمنان بنفس الرأي، ونفس وجهة النظر ،وهو ان الاتحاد بين المسيح والله كائن بسهولة ،وكل حسب وجهة نظره.

أيها الكهنة السوقيون المتصابون والسيئو التصرف والذين يفهمون أنها خدعة واغواء الشيطان فدعونا نحاربه إذا كنا لا نفكر سوياً في كل الموضوعات ، فيمكن لنا على الاقل ان نتحد في التفاصيل المهمة وخصوصاً فيما يتعلق بالذات الالهية، دعونا نؤمن بعقيدة واحدة ، وفهم واحد ،ورأي واحد بخصوص الله".

ثم ختم الرسالة قائلاً:

" اعيدوا إليّ أيامي الهادئة وليالي المريحة ، فربما استعيد فرحتي ، وبسمة الحياة الهادئة ، اما غير ذلك فلا شئ سوى البكاء وذرف الدموع، ولا راحة للبال الا بالموت ، من اجل ذلك فكيف يمكن أن يستريح بالي بينما رجال الدين والشعب يمزقون بالجدال غير الشرعي والمميت."

غير انه لم يحدث شئ مما رغب فيه الامبراطور وتمناه ،وذلك لأن كلا الفريقين كانا على طرفي نقيض ، مما تحتم عليه كردة فعل طبيعية إلى التدخل المباشر بينهما ، فأستدعى ممثلي الاتجاهين للمثول بين يديه بوصفه حبر الامة الاعظم والمسئول الاوحد عن المحافظة على الامن والسلم الاجتماعيين.

وفيما يبدو فإن الامبراطور كان يرمي من تلك الدعوة الشخصية إلى الوقوف بنفسه على جوهر الخلاف بينهما ، وذلك لايتاتى إلا بأن يدلى كل منهما بما يعتقد انه الحق مدعوماً بالحجج والاسانيد العقلية والمنطقية ، أي ليتناظرا امامه وجهاً لوجه.

ولما مثلا بين يديه وبمحضر من مستشاريعه الدينيين قال لاريوس وكما ورد في المصادر المسيحية ذات الصلة المباشرة بالتأليهيين.

- أشرح مقالتك.

فقال اريوس :

" أقول ان الأب كان إذ لم يكن الابن ، ثم انه احدث الابن فكان كلمة له ، الا انه محدث مخلوق ، ثم فوض الامر إلى ذلك الابن المسمى كلمة، فكان هو الخالق لهما بما اعطى من ذلك كما قال في انجيله إذ يقول :وهب لي سلطاناً على السماء والأرض ،ثم أن الكلمة تجسدت من مريم العذراء ومن روح القدس ،فصار ذلك مسيحاً واحداً ،فالمسيح إذن معنيان كلمة وجسد الا انهما الآن جميعاً مخلوقان."

فاريوس بمقولته تلك يقر لله تعالى وحده بصفة القدم ويعترف بأن كل ماعداه حادث ومخلوق له، وفي الوقت نفسه ينكر ألوهية المسيح ،أو بعبارة اخرى ينفي اللاهوت عن المسيح ابن الله وكلمته المتجسدة ، وهو بهذا وذاك عميق الايمان بوحدانية الله وبشرية المسيح.

فعقب عليه السكندروس متسائلا:

" أخبرنا الآن ايهما اوجب علينا عندك عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا."

وهو تساءل نابع أصلا من أعتراف اريوس المزعوم بقدرة المسيح على الخلق والايجاد،وفي هذا احالة منه إلى اسم الخالق أخص اسماء الأله ،فأجاب اريوس الاجابة البديهية.

"بل عبادة من خلقنا."

عندئذ رد عليه السكندرويس من قناعته في الوهية المسيح فقال كالمفحم له بالحجة القاطعة:

"فإذا كان خالقنا الابن كما وصفت ،وكان الابن مخلوقاً فعبادة الابن المخلوق اوجب من عبادة الاب الذي ليس بخالق، بل تصير عبادة الاب الذي خلق الابن كفراً ، وعبادة الابن المخلوق ايماناً ، وذلك من اقبح الاقاويل."

محاولاً بذلك أقناع الامبراطور بتداخل صفة الخالقية عنده تداخلاً معيباً ، فالاب خالق والابن خالق ومخلوق في وقت واحد ، مما يفضى بالضرورة إلى ارتباك المؤمنين ويحدث اضطراباً في مقاصدهم التعبدية ، واعتقادهم في خالقين كل منهما جدير بالعبادة والتعبد ، وذلك بلا أدنى شك مما تأباه العقول السليمة وتنفر منه النفوس الكريمة لقبحه وفظاعته.

وايا ما كان مبلغ الصدق والحقيقة في تلك الرواية التي ترجح فيها جانب التأليهين ، وتمت لهما الغلبة ، فإنها تؤكد على الاقل صحة دعوة الأمبراطور قسطنطين لطرفي النزاع ، ومثولهما أمامه ، ودخولهما في مناقشات طويلة ومضنية ، لم يسلم فيها أحدهم للآخر بشئ من القضايا محور الخلاف.

وكما يروي حقاً أوباطلاً ، فإن الإمبراطور استحسن موقف التأليهين ،ومال إلى آراءهم ، إذ وجده ظناً منه أو أعتقاداً مقبول على الأقل من الناحية النظرية ويمكن الاخذ به ،ودون اكتراث ولا كبير اهتمام بمدى صدقه واحقيته.

غير ان مستشاريه الدينيين وبحكم إدراكهم الجيد بطبيعة الاعتقاديين المتناقضين ، وعلمهم الواسع بعمق الهوة بينهما أقنعوه وحسماً للخلاف بضرورة عقد مؤتمر عام يجمع بين الفرقاء من أجل التسوية الشاملة للقضايا العالقة ، وللخروج بحلول جذرية للمشكلات المتنازع عليها، تكون ملزمة للجميع ،وتحت الاشراف المباشر للإمبراطور ،مع ضمان الا ينحاز لأي منها ،حتى يعطي لكل قرار صادر منه الصفة النظامية والقانونية.

وعلى الفور وجهت الدعوة إلى الاساقفة ورؤساء الجماعات المسيحية ، وصاحب كل راي أو معتقد كنسي أستقل به عن الآخرين ،وفي كل اقسام الامبراطورية بشقيها الغربي والشرقي لحضور مؤتمر عام لتبادل الرأي في القضايا التي تهم المجتمع المسيحي ، وعلى وجه التحديد تلك التي تسببت في تفرق كلمتهم واختلال أراءهم ،وأشاعت بينهم العداوة والبغضاء.

وأختار الإمبراطور قسطنطين بنفسه مدينة نيقيه العاصمة الثانية لولاية بثنية، وموضعها الآن قرية ازنبك في بلاد الأناضول التركية وذلك لما يتمتع به موقعها من هواء صافي ومناظر جميلة خلابة ،وخلو مناخها من مهددات الصحة العامة، وفوق ذلك فإن اسمها يرادف في المعنى لكلمة النصر أو الفتح ،وهي المعاني المحببة للإمبراطور والباعثة له على التفاؤل ، والموحية بحسن العاقبة.

ثم وضعت تحت تصرف المدعوين وسائل النقل الحكومية وتدفعت لهم الأموال من خزينة الدولة لتغطية نفقات الرحلة عندها بدأت الوفود تتقاطر تباعاً إلى مدينة نيقية، وكان في مقدمة الوافدين أسقف الأسكندرية السكندروس وسكرتيره الخاص ، وتلاهم في الحضور كل من اساقفة أنطاكية وقيصرية وأورشليم ونصبيين وقبرص وانقرة ونيقوميديا.

وجاء من الغرب اللاتيني أسقف انطاكية وبعض أساقفة بلاد الغال واسبانيا وبرطانيا ،واعتذر أسقف لروما لكبر سنه واناب عنه أثنين من القساوسة، اضافة إلى الزعماء الدينيين والمشاهير من علماء اللاهوت ،وآخرين استمدوا ريادتهم من قوة صبرهم وتحملهم للآلام في فترة الاضطهاد الروماني للمسيحيين.

قدر عدد الحاضرين إلى نيقيه في أدق الإحضاءات بألفين وثمانية واربعين (2048) ، أغلبيتهم الساحقة من نصارى الشرق الناطقين باللغة اليونانية ، في حين كان الوافدين من الغرب الناطق باللغة اللاتينية محدوداً ، لا لشئ إلا لأن المشاكل أو القضايا التي يراد البحث فيها ومعالجتها خاصة بنصارى الشرق وحدهم،وليست داخلة في اهتماماتهم العقدية ولم يتناقش أو يختلف حولها اثنان ولو في نطاق ضيق.

خصص الامبراطور لهذا الجمع الكبير الساحة الوسطى في القصر الملكي لاتساعها ،حيث وصعت المقاعد بنظام وترتيب ،وفي صفوف طويلة يواجه كل منهما

الآخر، وهو وضع يسمح للكل بالمشاركة وبالنقاش وبلوغ رأيه لاسماع الآخرين ،وفي الوسط وضعت جميع نسخ الأناجيل المتداولة بين الايدي والتي وصلت في ذلك الوقت إلى ما يقارب ثلاثمائة مكتوب أو انجيل.

وفي المقدمة وضع كرسياً من الخشب مرصعاً بماء الذهب ليجلس عليه الامبراطور ،في دلالة بارزة واشارة قوية ومباشرة إلى انه هو مدار المؤتمر ،وقوام المؤتمرين والقطب الاوحد التي تدور عليه مناقشاتهم .

وفي يوم 19 يونيو لعام 325م (استمرت جلسات المؤتمر حتى يوم 8/25 من العام نفسه وعلى امتداد سبعة وتسعين يوماً) جلس المؤتمرون كل منهم في المكان المخصص له ، وفجاة انقطعت الأحاديث الجانبية بينهم لسماعهم لأصوات الموكب الأمبراطوري الذي كان يقترب من القصر، ثم أتى ضباط البلاط والحرس الإمبراطوري واحداً بعد الآخر، تلى ذلك أشارة اعلنت قدوم الامبراطور ، فوقف الجميع احتراماً وتقديراً ، وأعينهم تتابعه بانبهار وهو يعتلي المنصة المعدة له نومن وراءه بعض افراد البلاط الملكي.

عرف الامبراطور قسطنطين بطول القامة وقوة البنية وسلامتها وجمال وجهه وكانت ملامحه وتعبيرات وجهه وكتفيه العريضين توحي كما لو كان نموذجاً لابولو آله الشمس الروماني ، وقد تعجب الكثير من الأساقفة للملابس التي يرتديها ولشعره وفوقه وضع تاجاً من اللؤلؤ ، وكان الروب القرمزي الذي يرتديه فوق ملابسه مرصعاً بالأحجار الكريمة والذهب، وكان على قدميه أحذية قرمزية ،وهي الاحذية نفسها في شكلها ولونها التي يرتديها بابوات روما الآن تقليداً له وتأسياً به.

ولما انتهى الامبراطور إلى حيث المكان المعد لجلوسه ومنه يشرف على المجتمعين لم يجلس الا بعد جلوس المؤتمرين ، بعدها صعد إلى منصة الخطابة اسقف مدينة انطاكية ، وابرز المجتمعين والمشهود له بالعلم والتقوى ،وليس مقبولاً تقديم السكندروس بوصفه احد الخصمين ليقدم الامبراطور.

فألقى كلمة قصيرة باللغة اليونانية ، شكره فيها على افضاله العميمة على الدين المسيحي والنصارى ، ومنوهاً بالمجهودات المقدرة التي بذلها حتى يخرج المؤتمرين بفكر واحد وقلب واحد ، ونتائج طيبة تضع حلولاً حاسمة لمصادر الشقاق والنزاع بين المؤمنين.

مؤكدا بعد ذلك ان كل شغب داخل الجماعة المسيحية هو بمثابة حرب كاملة يصطلي بنارها الجميع، ثم ختم كلمته متوجهاً بالخطاب للامبراطور قائلاً:

" ايها الملك العزيز إننا نقدم الشكر لله العلي الملك السماوي الذي اعطاك الملك الارضي، وانارك بنور المسيحية الشريفة لعبادة الأله الحقيقي ،نتضرع إلى الله ان يبارك ملكك وسلطانك. ويعظم عزك وشأنك ويعطيك أيامك الصالحة ، لأنه هو الذي ألهمك عقد هذا المؤتمر".

ألتمس بعدها من الامبراطور التفضل بافتتاح جلسات المؤتمر ،فوقف وارتجل حكمة باللغة اللاتينية التي لم يكن يتقنها الا عدد قليل من الحاضرين ، كانت تترجم

مباشرة ، أشار فيها إلى جمال الدين مستشهداً بجوانب من سيرة المسيح عليه السلام ، منبهاً إلى تعلقه الشديد بالمشيئة الخيرة لرب السماوات والارض، كما اثنى على الاساقفة ورؤساء الجماعات النصرانية بوصفهم قادة الامة وعلماءها وأكابر القوم ،داعياً الجميع إلى الاتفاق على أمر تجتمع حوله كلمة النصارى ،ومن يخالفهم بعد ذلك وجب عليهم لعنه وحرمانه.

وفي ثنايا خطبته الارتجالية أوجز لهم خطورة الخلاف والنزاع على سلامة الجميع فقال.

ان الصراع الداخلي في الكنيسة يعد في رأيي أشد خطراً وأبعد فتكاً من اي حرب أو قتال ،أن هذه الخلافات تبدو لي أكثر فاجعة إذا ما قورنت بأي شئ آخر."

ثم أوصاهم بضرورة العمل يداً واحدة وبأنسجام تام فيما بينهم ،من أجل أعادة وحدة الكنيسة ورفعتها،والقضاء على عوامل الشقاق والتمزق الذي أوشك على تهديد وجودهم ووفقاً للحق والأسس الانجيلية ،وأن كل ماعداه فأمر ثانوي لايهم.

ثم أعلن أفتتاح الجلسة الأولى ، وبدء النقاش حول أجندة الاجتماع مشيراً إلى انه لن يتدخل الا لضبط الجلسات حتى لا ينصرف المؤتمر لمعالجة موضوعات خارجة عن أهدافه وكشف لهم أنه أحرق الشكاوي التي وصلته من عدة أطراف قبل انعقاد المؤتمر بأيام ، مؤكداً على أنه وعلى الرغم من معرفته بمحتواها الا أنه لن ينحاز لأي طرف على حساب الطرف الآخر.غادر بعدها ساحة القصر،تاركاً الأساقفة وحدهم للتشاور فيمن يختارونه رئيساً للجلسة. فأتفق رأيهم على أوسيوس أسقف قرطبة لكبر سنه.

إن أجندة المؤتمر وكذلك المناقشات الداخلية بين المؤتمرين قليلة إذ لم تكن معدومة ،والشذرات المتبقية منها كافية للابانة عن وجهات النظر المختلفة ،فيروي ان الجلسات الأولى خصصت لاريوس ليعرض تصوره الاعتقادي ،فتلى على مسامعهم رأيه في وحدانية الله وبشرية المسيح التي لا يرفى بها أبداً إلى منزلة الأب، ولكنه قد يوصف بصفات التقديس والاحترام، مستدلاً في هذا وذاك بالآيات الأنجيلية ،ومما قاله لهم يومئذ:

" إن الابن ليس مساوياً للأب في الأزلية ،وليس من جوهره، وأن الاب كان في الأصل وحيداً ،فأخرج الابن من العدم بإرادته"

أما الآيات والمحررات التي يستشهد بها التأليهيون وتذهب إلى نقيض ذلك فهي في رأيه محرفة وزائفة ولا يعتد بها في مجال الدين والعلم، بل ان الروايات التي تقوي من قناعتهم أوفر واقوى من تلك التي يعولون عليها في عقيدتهم الباطلة.

وفيما يلي مقطع من المناقشات بين الطرفين حول القضية مثار النزاع:

" كانت حجتهم – أي التأليهيون _ أن الابن كان من الله، ورد أتياع اريوس بأنهم هم انفسهم من الله ،لأنه مكتوب :أن كل الأشياء من الله، وإذا أستخدمنا هذا المبدأ في الجدال فهو يثبت ألوهية جميع الامخلوقات.

ويرد عليهم أساقفة المذهب البولسي: أن المسيح لم يكن فقط من الله نولكن أيضاً روح الله.

فأثار هذا التحديد حفيظة ومعارضة كثر من جانب المسيحيين الذين قالوا ان هذا الكلام لم يكن في الأصل."

وعلى أي حال فقد وصفت رود اريوس وأجاباته على خصومه ومداخلتهم بأنها صريحة وقاطعة ومنطقية ومقبولة عقلاً، وقد كان واثقاً من صلابة رأيه وقوة حجته وسلامة موقفه، إلى حد أجبر التأليهون على التقهقهر والتراجع عن مسلمات معتقدهم، والرد عليه بحجج غير معقولة ومموجة ، الا أن البعض منهم وكما يرون أرغموه على الاعتراف بأن المسيح وان كان مخلوقاً وله بداية فبمقدوره التحول والأنتقال من الفضيلة إلى الرذيلة ،ومن الخير إلى الشر.

وأنبرى أثناسيوس سكرتير اسقف الاسكندرية السكندروس للرد على رأي الموحدين وتفنيد اعتقادهم،وأيضاً لعرض المذهب التأليهي أو التثليثي كما يعتقد هو وغيره ،وخلاصة كلامه :

" إذا لم يكن المسيح ولا الروح القدس كلاهما من مادة الأب ،فإن الشرك لابد أن ينتصر ،صحيح أن تصوير أشخاص ثلاثة في صورة أله واحد فيه من الصعوبة وعدم العقولية مافيه،ولكن العقل يجب أن يخضع لما في الثالوث من خفاء وغموض".

أما عن ألوهية المسيح وتأليهه فقال:

" لولم يكن (أي المسح) شخصياً صورة الأب الجوهرية ولو لم يكن الله الا عرضاَ وبالمشاركة ،لما كان في وسعه ان يتحدي يوماً بما أنه ليس بذاته".

أن نقطة الضعف القاتلة في معتقد التأليهين تكمن في عدم وجود أدلة صريحة ومباشرة تؤيدهم في دعواهم ،ولا شواهد قوية تدعم مواقفهم ،وكل احتجاجاتهم بالنصوص الإنجيلية أبطلها الموحدون بنص الأنجيل نفسه. منها كما رأينا من قبل محاولتهم إثبات ان المسيح هو الله ، من مقولة الكتاب المقدس أن المسيح هو الصورة الخالدة للأب والأب الحقيقي ،فرد عليهم الموحدين بأن الكتاب يقول أيضاً بأننا البشر صورة الله ومجده.

ومن المناقشات التي حفظت داخل قاعة المؤتمر سواء بين الطرفين الأساسين في النزاع، وبين النصارى انفسهم جدلهم الطويل حول كلمة أو عبارة همويوسيون اليونانية والتي تعني مماثل أو مشابه في الجوهر، وكلمة أو عبارة همؤرسيون اليونانية ايضاً وبمعنى من جوهر واحد ،وكلاهما من الألفاظ التي استخدمت للتعبير عن حقيقة صلة الأب بالأبن.

فالموحدون رفضوا رفضاً قاطعاً الاعتراف بالمسيح ألهاً ، ولم يكتفوا في الوقت نفسه بالتأكيد على أنه كلمة الله، بل أعلنوا صراحة أنه ليس شبيهاً بالله ، مؤثرين اللفظة اليونانية اتوميوس في دلالتها على نفي التشبيه والمماثلة.

أما التأليهيون فبدلوا لفظة همووسيوس " أي المساوى في الذات والجوهر بلفظة هيؤوسيوس ،أي المتشابه في الذات والجوهر ووصفوا بها المسيح بعد أعترافهم أنه كلمة الله، ليثبتوا من خلالها التشبيه في الذات والجوهر.

وعلى الرغم من أن كلا اللفظين لا يختلف الأول عن الثاني إلا في حرف واحد ،إلا انهما مختلفان أختلافا واسعا في دلالتهما المعرفية ، لأن الصورة اليونانية هومسيوس ، المركبة من مقطعين هومس ،أي ذات راوسيا ، أي جوهر تحمل في نفسها معنيين مماثل من ناحية وشبيه من ناحية أخرى، وعليها بنى التأليهيون اعتقادهم في ان المسيح مطابق أو مماثل في كينونته مع الله الأب، في حين ان الموحدين لا يرونه مشابه في كينونته لله الأب ،لا اكثر ولا أقل.

وايا ما كان الأمر فلم ترتفع قط المناقشات وطوال جلسات المؤتمر إلى مستوى الخطاب العقلي الهادي الرزين ،والمؤيد بنور البرهان وسلطان الحجة ،بل جرى في جو مشبع بروح العداوة ومظاهر الكراهية، وسادته المشاغبة والمنابذة والمهاترة ،وكثر فيه اللغط ،وأرتفعت الأصوات عالية ومدوية ،وبسرعة غريبة تدرجوا من المنازعة إلى المشاغبة ومن المجادلة إلى المضاربة .

وكان الإمبراطور قسطنطين يتابع بصبر عجيب ما يجري أمامه ،تارة يهدي من غضبهم ويخفف من حدة انفعالاتهم ،وتارة يفصل بينهم في الكلام ، ماخوذاً في هذا وذاك من تنافر أراءهم وتعارضها ومتعجباً من البغض الذي يحمله كل منهم للآخر. ومنبهراً من عدم مراعاتهم لأبسط القواعد الواجب أتباعها بين المختلفين في الرأي والمعتقد.

وظل المؤتمرون على هذه الحالة من المناكفة والصراع طيلة أيام المؤتمر ،يلفون ويدورون في حلقة مفرغة، دون الوصول ولو إلى الحد الوسط الذي يرضي الطرفين ويوصلهم إلى بر الأمان ، إيذاناً بفشل المؤتمر في المسألة الجوهرية التي دعوا لإيجاد حل لها ، وإعلاناً صريحاً بإنقسام المجتمع المسيحي إلى طائفتين متنافرتين ،و أنقسام الإمبراطورية إلى جزئين يتداخل شعبها مع بعضه بعضاً ،ويقف كل منهما بإزاء الأخر موقف النقيض من نقيضه ،والعدو من عدوه.

عندئذ قرر الإمبراطور قسطنطين وعلى مسسئوليته التدخل المباشر ليفصل في القضايا موضع الخلاف بنفسه ،وذلك بإتخاذ التدابير الشديدة التي تحفظ للدولة وحدتها وللمجتمع سلامته ، وبعد جلسات متعددة مع مستشاريه الدينيين وبإيعاز من نصارى الشرق التأليهيين وعلى وجه أخص أساقفة الاسكندرية ،تبنى المعتقد التثليثي المؤله لعيسى عليه السلام بلا تحفظ.

ثم أصدر أوامره بسرعة إخراج حوالي سبعمائة عضو من الموحدين ،وبقى ألف وثلاثمائة وثمانية وأربعون (1048) على مذاهب مختلفة منهم ثلاثمائة وثمانية عشر (318) من التأليهيين الخلص ،والباقي مستقلين في اراءهم ،ولكنهم من المنكرين لألوهية المسيح والمتعاطفين مع الموحدين ، فأكرهوا هم ايضاً على مغادرة المجلس.

يعني ان الإمبراطور أخرج من المؤتمر بقوة السلطان وجبروته ألف وسبعمائة وثلاثون عضواً (1730) ،يمثلون الأغلبية الساحقة للمؤتمرين ، والمجمعون على تفرد الله بالإلوهية وانكار ألوهية المسيح ،وهم بأكثريتهم تلك يمثلون أكثر من ثلثي الأعضاء ، وانحاز إلى الأقلية التي تمثل بلا شك الشذوذ على القاعدة. وبالتالي فقد المؤتمر شرعيته

ومرجعيته التي جرى العرف والعادة في المجامع على أن يكون الحكم بالتصديق للأغلبية ، ايا كان نصيبهم وحظهم من الحق والحقيقة.

وبعد ان خلا المجلس تماماً من الموحدين واولئك المنكرين لألوهية المسيح ،عقد التأليهيون أول اجتماع لهم منفردين وفي مجلس وصفوه بالخصوصية والعظمة،وجلس الإمبراطور في وسطهم واخذ خاتمه وسيفه وقضيبه وباقي رموز سلطته وشارات اقتداره ووضعها أمامهم ،قائلاً في لهجة حازمة:

" قد سلطتكم اليوم في مملكتي ، فأفعلوا ما بدا لكم ، واصنعوا ما ينبغي ان تصنعوا مما فيه قوام وصلاح الأمة "

فباركوا الأمبراطور وقلدوه سيفه ورموز سلطته في أشارة موحية أنه بهذه الخطوة قد تبوأ في الدين المسيحي منزلة لا تقل في دورها عن منزلة الحواريين ،ثم قالوا به:

" أظهر دين النصرانية وذب عنه"

وعلى الرغم من اتفاق التأليهيين فيما بينهم ، إلا أنهم تباينوا في تفسيراتهم لهذا المعتقد وتحديده بالدقة الواجبة ، فكثرت وتعددت آراءهم ، فمنهم من رأى ضرورة الالتزام بتفسير الاباء السابقين ،والاكتفاء بها ،ومنهم من مال إلى التوفيق بين هؤلاء وبين ما استجد من آراء واجتهادات لها وزنها المعرفي ،مثل ظهور المصطلح اليوناني مساو للاب في الجوهر(همووسيوس) ،وذلك لأن هذه الكلمة كما يرون:

تدل في آن معاً على الجوهر ذاته وأشخاص متمايزين ، لأنه ليس هناك شئ مساو لنفسه في الجوهر ، بل لشخص آخر دائماً، فالتفسير جديد لكنه متضمن في رسائل الاباء الذين حذروا فيها من الواحدية ،ويؤكدون أن الكلمة مخلوق ، وأنه كان هناك فترة من الزمان وجد فيها الاب قبل الابن ،وهي محاولة للتوفيق بين الوحدة الالهية والتثليث.

وفي خضم المناقشات الدائرة وكثرة الاعتراضات تقدم اسقف قيصرية بصيغة قانون ايمان كان يردد في كنيسته آملاً في حالة قبوله أن يضع حلاً وخاتمة لمجادلات لا نهاية لها في الأفق القريب ،ولكن المقترح لم يقبل برمته ،بل ادخلت عليه بعض العبارات للضبط تارة وللتوضيح تارة أخرى من بينها عبارات مثل:

أن ابن الله مولود من جوهر الاب وانه آله حق من إله حق، ومولود غير مخلوق ،ومساو لله في الجوهر.

غير ان البعض اعترض على عبارة ،مساو لله في الجوهر بوصفها عبارة لا وجود لها في الأنجيل ، وغريبة عنه مما يستوجب رفضها وحذفها من الصيغة، ولكن اثناسيوس وبعض المؤيوين لها ردوا على هذا الاعتراض معترفين بأن المصطلح غير موجود بنصه، ولكن موجود فيه وجوداً معنوياً ،لأن الكتاب المقدس ورد فيه ما يفيد خروج الابن من جوهر الأب، ومن ثم فالمصطلح وان كان غريباً على الكتاب ، الا انه مستوحى منه معنوياً.

وهكذا ظل أبناء المعتقد الواحد يختلفون حول تفسير معتقدهم تفسيرات يعترض عليها البعض ، ويتحفظ عليها الآخرون دون الاتفاق على صيغة تحظى برضا الجميع ،ويرضى عنها الامبراطور ويأخذ بها الاتباع.

والصيغة التي انتهوا إليها وعرفت فيما بعد بقانون مجمع نيقيه ،يري الكثير ان التوقيع عليها تم تحت الضغط والإكراه، والتهديد والوعيد، وذلك لعدم وجود سند لها في الأنجيل، وقد اعترف أحد هؤلاء الموقعين عليها مبرراً ما اقدم عليه من جريمة بقوله:

- النفس ليست أرخص من الحبر القليل .

والصيغة التي وقع عليها التأليهيون، ووافق عليها الامبراطور قسطنطين ،هي كما يلي:

" نؤمن بالله الواحد الاب مالك كل شئ ، وصانع ما يرى وما لا يرى ، وبالابن الواحد يسوع،ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها الذي ولد من ابيه قبل العوالم كلها ،وليس بمصنوع ،اله حق من اله حق، من جوهر ابيه ،الذي بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شئ من أجلنا ،ومن أجل معشر الناس،ومن أجل خلاصنا ،نزل من السماء وتجسد روح القدس وصار إنساناً ،وحبل به وولد من مريم البتول ،وقتل وصلب أيام بيلاطس،ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه، وهو مستعد للمجئ تارة أخرى ليحكم بين الأموات والأحياء ،ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من ابيه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة (كنيسة) واحدة قدسية جامعية رسولية ،وبقيام ابداننا وبالحياة الدائمة أبد الآبدين."

ثم اضاف الاباء التأليهيون إلى ذلك النص العبارة التالية:

" اما أولئك الذين يقولون أنه كان زمن لم يكن فيه أنه لم يكن قبل ان يولد ، وأنه صنع من العدم ،أو من أقنوم آخر أو جوهر أخر ،أو أن ابن الله مخلوق أو متغير أو متحول أو غير ثابت فهؤلاء جميعاً تفرزهم الكنيسة وتلعنهم".

فالقانون اذن وفي سطر واحد فقط اعترف لله بالوحدانية والخلق والتكوين ،ثم اضاف اليه صفة الابوة التي لا تتناقض اصلاً ، وكما يرون في دلالتها العلمية مع المعنى المتعارف عليه، ولا يحتمل تأويلها أو صرفها لتفيد معنى آخر، وذلك لأن الاب سبب مباشر في إيجاد المسيح الابن ،وبغير الطريق المعتاد في إيجاد المخلوقات ، باعتبار ان حقيقته عليه السلام مماثلة لحقيقته تعالى في الوجود ،وله ذاتية وكيان يقف بها ومعه على قدم المساواة ،وباستقلال تام في الوجود كأستقلاله هو سواء بسواء.

أما الابن فقد شكل حيزاً واسعاً في القانون يكاد يستغرق ثلاث ارباع النص مع التركيز على نقطتين محوريتين :

- أولهما: بنوته لله تعالى.
- ثانيهما :مساومته لأبيه في الالوهية والتأله.

فهو أله حق كما ان اباه اله حق ،وهو في الوقت نفسه يشكل مع ابيه شيئاً واحداً ،أو بالمعنى الأكثر تداولاً غير مخلوق مساو للاب في الجوهر، ومن مريم البتول أتخذ

صورة الإنسان ،أي تجسد الله في المسيح في صورة إنسان ،وظهر على الأرض في هيئة المسيح الإنسان ،وذلك بهدف انقاذ البشرية المعذبة.

ومن أجل هذه البشرية ايضاً وتكفيراً عن خطايا البشر تعذب المسيح ودفن في العصر الروماني ،ولكن ليس هو الله الذي تعذب وقتل، بل الإنسان الذي جسد فيه الله، ولم يقتل بيلاطس هذا الإنسان أو يفنيه فناءً أبدياً ،بل صعد إلى السماء وهناك جلس على يمين أبيه الاب، جلسة تمتد إلى فترة طويلة من الزمان يظهر بعدها لهذه البشرية ليحكم أو يحاكم الأحياء والأموات ،وفي هذه المرة لن يكون لحكمه أو ملكوته نهاية.

والنص في مجمله ولمزيد من إيضاح فكرة القانون يشير إلى أن عيسى عليه السلام هو من جنس الله ومساو له في الطبيعة، أي انهما يشتركان في الاصل والنوع، ولكن كل منهما قائم بذاته ومستقل عن الآخر،وعبارة مولود غير مخلوق أو مصنوع تفيد بحكم الضرورة الوجودية والحياتية،ان الله ولده وانجبه ليتشكل معه شيئاً واحداً في الألوهية والتأله، بكل ما فيها من قدرة واقتدار على الخلق والايجاد.

على الا يفهم من الوهية عيسى عليه السلام وتأليهه أنه هو الله عز وجل ،بل هو واحد مع الله ،ومشارك له في الطبيعة، وكل قائم بذاته، يعني هو أيضاً في العبارة الأكثر تداولاً في اعتقادات النصارى مثل الأب من كل جهة، ولكنه ليس هو الأب .

وذلك يعود إلى أن المسيح كما يعتقدون هو اتحاد لطبيعتين ألهية وبشرية نتج عنهما ذاتان وكيانان هما الأله والانسان في وقت واحد اتحاداً لا اختلاط فيه ولا أقتران ولا استحالة ،وبشكل لا انفصام فيه ولا أنفصال ، فهو في كل الحالات أتحاد لا اندماج فيه بحيث تتلاشى فيه الطبيعتان في وحدة واحدة فتصير شيئاً واحداً ، أو بتعبير أخر انه ابن الله المتجسد مؤقتاً في صورة انسان ، بها ظهر في الأرض ، أي في شكل المسيح الإنسان وذلك بهدف تخليص البشر وانقاذهم من عبودية الخطيئة.

ولم يشر القانون إلى الروح القدس إلا بعبارة قصيرة تحصر الايمان به وتقصره على صدوره من الأب،ودون النص صراحة على مساومته بالأب والأبن في الألوهية والتأله ، وظل الحال هكذا بلا تحديد لمنزلته في الايمان لحين انعقاد مجمع القسطنطينية الثاني عام 381م ، حين ذلك اضافوا أو عدلوا في القانون النيقي ليماثل الأب والأبن في ألوهيتهما ،فجاء التعديل على النحو التالي:

"ونؤمن بالروح القدس المنبثق من الأب والأبن معاً ألهاً حقاً هو أيضاً مساو للأب والأبن في الجوهر أبداً".

وبهذا التعديل احتل الروح القدس المرتبة الثالثة في الألوهية ،ويأتي الايمان به بعد الأب والابن مباشرة ، وهو رغماً عن صدوره عنهما كامل في ألوهيته ،وله كيان خاص وذاتية متفردة ، ومستقل عنهما في الوجود ،وسمى روحاً لأنه مبدع الحياة ، ودعى قدوساً لأن من بين أعماله تقديس القلب المؤمن كما يسمى ايضاً روح الله وروح المسيح ،وتنسب إليه اسماء الله وصفاته، كالعلم بكل شئ ،والقدرة على كل شئ ،وتنسب إليه ايضاً الأعمال الألهية كالخلق والإيجاد.

غير ان دائرة أعماله مقصورة على المؤمنين وحدهم ،فهو الذي يهبهم القوة والحكمة والفهم والمعرفة ،ويوفقهم إلى أداء عباداتهم ،ويمنحهم على الدوام قلباً جديداً طاهراً ،وروحاً جديدة منورة ،ويعلمهم كل شئ ،ويذكرهم بكل ما قيل ،ويشفع لهم، وهو يحي موتى الخطايا والآثام ويقدسهم ويطهرهم ، ويؤهلهم لتمجيد الله ،والتمتع بالنعيم الأبدي.

وبهذا تكون عقيدة التأليهين في الله قد بلغت حد الكمال، واستقام ايمانهم الغيبي بالله الهاً واحداً في ثلاثة أقانيم أو اصول ، ليقف بهذه الصيغة الثالوثية مناقضاً لعقيدة التوحيد، ومعارضاً ومناهضاً لها.

والابن والروح والقدس ليسوا ثلاثة ألهة بل آله واحد يحمل اسم الله ،ويجب الايمان به على تلك الصورة ثلاثية الأجزاء والعناصر ،فيقولون:

- نؤمن باله واحد، الاب والابن والروح القدس آله واحد، جوهر واحد متساوين في القوة والمجد.

فالله أذن وكما تقرر عندهم واحد بالجوهرية ،أي قائم بنفسه ،ثلاثة بالاقنومية ، أي بالتعيين ،لان كلمة اقنوم تطلق على كل من يتميز عن سواه، شريطة ان يكون كل شخص مستقل بذاته وله ظل، ويراد بذلك تساويهم في الأصل والطبيعة ،واستقلال كل منهم بذاته، فإذا ظهر بذاته فهو الاب، وإذا نطق فهو الأبن ، وإذا تجلى كحياة فهو الروح القدس.

أو كما جاء في تفسير آخر:

فالاب هو الذي خلق العالمين بواسطة الابن، والأبن هو الذي اتم الفداء والخلاص وقام به، والروح القدس هو الذي يظهر القلب والحياة.

وعلى الرغم من تميز الأقانيم أو الشخصيات الثلاثة الواحد عن الآخر ، واشتراكها في جميع الاعمال الألهية ،إلا انها ليست ثلاثة ،بل أله واحد، وذلك بأعتبار ان الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، أي الثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة بلا فارق في المعنى ، وهذا التثليث في طبيعة الله ليس مؤقتاً أو ظاهرياً بل هو حقيقي وابدي ،وحقاً سماوياً أعلنه المجمع وصاغته الكنيسة في قالب يجعله محور معرفة النصارى بالله وأعتقادهم فيه.

إن أخطر وأعظم ما تمخض عنه قانون مجمع نيقيه ينحصر في نقطتين محوريتين لايزال النصارى يعانون من تأثيرهما السئ إلى يومنا هذا:

أولهما: الأرتفاع بعيسى عليه السلام من بشريته وانسانيته الطبيعية إلى منزلة تساوي فيها بالله تعالى ،وذلك لأنه ابن الله ومن جوهر ابيه ،فهو إذن اله تام كامل في الوهيته ومستحق لكل صفات الألوهية كالقدم والخلق والعظمة والكبرياء ،وحُرم تبعاً لذلك كل تصريح بأنسانيته ،أو نفى ألوهيته.

وثانيهما: اقام الاعتقاد باله ذو ثلاثة أقانيم ، أي الثالوث والتثليث مقام التوحيد والوحدانية ، نافياً وعلى نحو قاطع أي كلام يثبت لله وحده الأنفراد والتفرد بالالوهية

والتأله ، لأن الله واحد ضمن أو في ثلاثة يملك كل واحد منها الطبيعة الألهية بكاملها ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً.

ومن أجل التمكين لهذين الاعتقادين أختار اعضاء المجمع التأليهيين من الاناجيل والكتابات ذات الصلة بالأنجيل مايتفق ويتواكب معها، ويكون كالخادم والمساعد لها، فأعتمجوا الاناجيل و الرسائل المتداولة اليوم بين أيدي النصارى، كمراجع تمثل الدين المسيحي في شكله الجديد، بالتساوق مع هذا اصدروا عدة قرارات تقضي بتحريم وأقتناء أو قراءة أي مكتوب مخالف لها، كما أمروا أيضاً بأحراق وإتلاف الموجود منها.

أما باقي قرارات التأليهيين فهي ذات طابع تنظيمي بحت، بعضها متعلق بزواج رجالات الدين المكرسين لخدمة الجماعة والبعض الآخر عن مواقيت الأعياد والوظائف الكنسية ،إلى غيرها مما لا علاقة له بقانون الايمان ، فأجيزت بأجمعها.

عندئذ أعلن عن انتهاء جلسات المجمع ،فدعا الامبرطور قسطنطين التأليهيين إلى مادبة ملكية فخمة في قصره الملكي بالمدينة، غالى فيها بتكريمهم وبالغ في ضيافتهم إلى حد كتب فيها مؤرخه الخاص، يصف هذه المأدبة ، قائلاً:

" إن اجتماع أباء الكنيسة في سلام وصفاء بهذه المأدبة الضخمة كان يشبه صوت ملكوت المسيح ،وقد تجلى هذا المنظر أمامي كحلم أكثر مما هو حقيقي."

وأخيراً ألقى عليهم الامبراطور خطبة وداع قصيرة وموجزة حثهم فيها على التقيد التام بالخط العام الذي رسمته لهم قرارات المجمع ،وعلى التفاهم والمحبة والتعاضد ،وضرورة توحيد كلمتهم ونشر الايمان بين الوثنيين ،والا يمزق بعضهم أجساد بعض.

ثم وزع عليهم كثير من الهدايا القيمة ،وسلم كل واحد منهم الأوامر الملكية إلى ولاة الولايات التي سوف يمرون عليها ،لكي يوزعوا عليهم ما يكفيهم من المؤن ، ويعينهم على التفرغ لرسالتهم،.

إن أشد أعمال الأمبراطور قسطنطين واقواها تاثيراً وابعدها نفاذاً ،هي أصداره تباعاً لسلسلة من المراسيم تنص على أن كل قرارات مجمع نيقيه وعلى وجه أخص ذات الصلة المباشرة بالعقيدة ،قوانين وتشريعات حكومية ،ولها بهذه الصفة الرسمية نفس القوة الإلزامية للقانون العام ،أي تصبح فور صدورها ملزمة لكل مواطن ، وواجبة الطاعة لكل رعايا الأمبراطورية.

وأستتبع ذلك بالضرورة القانونية الإعلان والمناداة على الجميع باعتبار عقائد المجمع أجبارية لكل فرد ،وايا كان مذهبه في الديانة المسيحية ،وكل مخالف أو معارض لها يعرض نفسه للمساءلة القانونية ولاقصى العقوبات والجزاءت المنصوص عليها ضمن الإطار العام للمراسيم.

وتعرض الموحدون بحكم إنكارهم لألوهية المسيح لحملة اعتقالات واسعة، واتخذت في حقهم أقسى أنواع الاضطهاد والقهر، بدأتها السلطة الوثنية بنفي ذوو الرأي والمؤثرين في جماعتهم ،وطرد الأقل تاثيراً من وظائفهم الحكومية ،وصودرت كتبهم أو أحرقت علناً ، ومنهم من لعن أو قتل، وكان من بين المنفيين أريوس الذي حمل قسراً من

نيقيه مع مجموعة من أتباعه إلى بيثية وحكم بالإعدام على كل من يخفي شيئاً من كتاباته وكتابات أتباعه.

وهكذا وضعت اجهزة الدولة التنفيذية مدعومة بجنود الجيش الروماني الوثنيين في كل ولاية ومدينة تحت إمرة السلطات الكنسية لانفاذ وتنفيذ قرارات المجمع وبقوة الحديد والنار، إلى حد روى ان اكثر من مليون موحد قتلوا في الفترة التي أعقبت قرارات المجمع، وبالتالي لم يجرؤ أحد على المجاهرة بوحدانية الله الا عدد قليل معرضين انفسهم لمصير من سبقوهم بحيث اصبح ينظر الآن إلى هذه الفترة من حكم الامبراطور قسطنطين بأنها التجسيد الحي لعصر من عصور الظلام ،والممثل الطبيعي لاعتى نظام حكم ارهابي ومحارب عنيد لوحدانية الله وللموحدين على حد السواء.

ولم يحدث قط من لدن ادم عليه السلام وحتى اعلان عقيدة التثليث ،وفرضها بمرسوم امبراطوري ،ان حصل تحد سافر لوحدانية الله تعالى بصورة رسمية صارخة وعنيفة من قبل أولئك الذين يدعون ويتظاهرون بانهم عباد‌الله وانصاره ولو صنع الواحد منهم صنماً واتخذه شريكاً لله لعد مجرد عقيدة مشركة لا غير ،ولكن عندما يرفع عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله إلى مرتبة الألوهية فليس هناك من وصف له سوى الكفر.

يقول أحد النصارى المهتدين في وصفه لأعمال الامبراطور قسطنطين:

" أن مرسوم قسطنطين قد فرق والغى بصورة مباشرة الوصيتين الأوليتين من شريعة موسى عليه السلام حول وحدانية الله" لن يكون لك إله أخر معي، وخالف المنع المتشدد لصماعة الصور والتماثيل من أجل العبادة ،وأن الاعلان عن وجود ثلاثة في شخص الله، والايمان بأن الله مولود من مريم العذراء أكبر اهانة لشريعة الله وأشد الزندقات كفراً . إن صناعة التماثيل الذهبية والخشبية أمر مكروه بدرجة فائقة ،ولكن أن تجعل من المخلوق الفاني موضوعاً للعبادة وان تعلنه الاهاً ،فإن ذلك هو الكفر البواح."

الفصل الثالث
ترسيخ العقيدة النيقية

تمثل بنود قانون الايمان النيقي دعامة الدين المسيحي وأساسه العقدي الذي لا يسمح لاحد بالتشكيك فيه، حيث ضبطت فيه وبصورة قاطعة ومحكمة وعلى قدر كبير من الاتقان القاعدة الكبرى المتعلقة بالثالوث ،فجعلوا من الأبن مرتكزاً له، ومن خلاله أعلنوا أنه:

متساو مع الأب في الذات والجوهر.

غير ان الصيغة العقدية الكاملة لثالوث الاب والابن والروح القدس ظلت ولفترة طويلة تزيد عن نصف قرن من الزمان ناقصة نقصاناً أضعف منها ونزل بها عن حد الكمال ، إذ لم يبت القانون – وكما بينا من قبل – في مساواة الروح القدس كاقنوم مستقل عن الأقنومين الآخرين، وبالتالي يقى الثالوث على الأقل في نظر الأساقفة الذين ظهروا بعد مجمع نيقيه غير متوازن ولا متعادل الأركان ، إلى ان برز من بينهم من أعترض عليه كجزء لا يتجزأ من الثالوث ككل.

وأية ذلك أن مقدونيوس اسقف مدينة القسطنطينية كان قد خرج للناس برأي جديد لم يسبق إليه عن الروح القدس ،طرحه وعلى نطاق واسع في كتاباته وخطبة الكنيسة.سعى من خلالها إلى تحديد ماهيته ووظيفته في العقيدة ، وفحواه :

إن الروح القدس عمل ألهي منتشر في الكون وليس باقنوم متميز عن الأب والابن ،بل هو مخلوق يشبه الملائكة ،ولكن ذو مرتبة اسمى منهم ، ومن ثم فهو ليس الهاً ولا يتصف بالقدم ، وأتخذه الله رسولاً بينه وبين من يريد أن يلقى إليه وحياً من خلقه أو أمراً كونياً ، وهو في كل ذلك ليس بروح الله المتعلقة بذاته.

وأستند الأسقف فيما ذهب إليه على نص ورد عرضاً في انجيل يوحنا عن طبيعة الروح القدس ،جاء فيه:

- به تكوّن كل شئ وبغيره لم يتكون شئ.

فهو يؤكد وبوضوح تام على أهم ما يتميز به الروح القدس ، وهو دروه واعماله ، دون ان تنسب إليه كمخلوق قائم بذاته وله خصوصية في الخلق والإيجاد ، اسماء الله وصفاته ،وفي هذا أنكار مباشر لالوهيته أو مشاركته للأب والابن في الذات والجوهر.

فرد عليه الأساقفة في حينه قائلين:

" لا يوجد لدينا الا روح واحد هو روح الله ، ومن الملعوم أن روح الله ليس شيئاً غير حياته ،و إذا قلنا أن حياته مخلوقة فعلى زعمك أنه غير حي ، وإذا كان غير حي فهناك الكفر الفظيع والراي الشنيع"

وايا ما كانت قيمة الرد العلمية ،فقد انتشرت فكرة مقدونيس انتشاراً كبيراً بين المؤمنين ،وكان له أتباع ومناصرين ومؤيدين حتى من بين الموحدين، مما جعلها ومن

وجهة نظر التأليهيين اعتقاداً مصادماً لقانون مجمع نيقيه وخروجاً مكشوفاً عن مقرراته ، إذ حصر الايمان في الأب والأبن فقط ، وأخرج منه الروح القدس.

عندئذ دعا الامبراطور تيودسيوس بوصفه راعي الأمة والحافظ الأمين على المراسيم الامبراطورية إلى مؤتمر عام، حضره حوالي مائة وخمسون أسقفاً يمثلون جميع الطوائف والهيئات الكنسية عقد عام 381م بمدينة القسطنطينية ، وفيه نوقشت وباستفاضة آراء مقدونيوس ومناهضتها الصارخة لما أجمع عليه الآباء في نيقيه ،ثم فندوا مقولته وبينوا ضعفها ،قائلين :

"ليس الروح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ،وليس روح الله شيئاً غير حياته، فإذا قلنا ان روح الله مخلوق فقد قلنا أن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حي ،وأن زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به ، ومن كفر به وجب عليه اللعن."

وبناء على تلك الحجة وذلك الدليل أقر المؤتمرون قانون الايمان النيقي، ثم أضافوا إليه بعض الايضاحات والتفسيرات،وخصوصاً تلك التي لها علاقة مباشرة بتجسد ابن الله ،وألوهية الروح القدس ، فجاء القانون الجديد مشتملاً على اثنى عشر بنداً ،لا يزال النصارى إلى يومنا هذا يعملون بها، ونص القانون:

1- أؤمن باله واحد اب ضابط الكل صانع السماء ،والأرض ،وكل ما يرى وما لا يرى.

2- وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ،نور من نور ،اله حق من اله حق، مولود غير مخلوق ،مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شئ .

3- الذي من أجلنا نحن البشر ،ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماوت وتجسد من الروح القدس ،ومن مريم العذراء وتأنس.

4- وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي وتألم وقبر.

5- وقام في اليوم الثالث على مافي الكتب.

6- وصعد إلى السموات وجلس على يمين أبيه.

7- وأيضاً يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات ،الذي لا فناء لملكه.

8- وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الاب والأبن مسجود له وممجد ، الناطق في الأنبياء.

9- وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية.

10- واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا.

11- واترجى قيامه الموتى.

12- والحياة في الدهر العتيد ،آمين"

ومن الواضح ان الزيادة التي ادخلت على الروح القدس تركزت حول الايمان به بوصفه الرب، أو هو الله ،لأن الله روح وكلمة قدوس لا تطلق الا على الله، مثل الله خالق وموجد وهو أسوة بالأب والابن معبود ومعظم ،وبه اثبتوا أن الأب والابن والروح

القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه وثلاث خواص، واحدية في تثليث وتثليث في واحدية ،كيان واحد في ثلاثة اقانيم ،اله واحد جوهر واحد طبيعة واحدة.

وبهذا خرج المجمع وكما يعتقدون بالعقيدة الصحيحة معلنة في مساواة الروح القدس للأب والابن في الذات والجوهر فاستقامت وكما بينا من قبل عقيدة الثالوث في صيغتها النهائية والكاملة ،وهي الايمان بالله الغائب متمثل في سره الأزلي على أنه إله واحد في ثلاثة أقانيم ،وهي الصيغة التي لا يزال النصارى يرددونها كاقرار واعتراف وبيان منهم أنه الحق الثابت اليقين مثلما يردد المسلمون شهادة الا إله إلا الله.

وبناء على ذلك نسبت للروح القدس اسماء الله وصفاته كالعلم بكل شئ والوجود في كل مكان ،والقدرة على كل شئ والقدم والآزلية ،كما نسبت إليه أيضاً الخلق والايجاد، والعبادة الواجبة لله ، أما عن دائرة اعماله فإنه يهب القوة والحكمة والمعرفة ومخافة الرب، ويعلم كل شئ ويذكر بكل ما قيل ،والحلول والاتحاد بالمؤمنين الصالحين ،كما يشفع للمؤمنين ويحميهم من الخطايا والآثام ويطهرهم ويؤهله لتمجيد الله.

ظلت تلك الصيغة المعدلة معمول بها في كل كنائس النصارى ولمدة مئتان وخمسون عاماً(250) ، إلى أن عقد مجمع خاص للكنيسة بروما لم يحضره ممثلين عن الكنيسة الشرقية عام 869م ،وفيه أضافوا للقانون الجديد عبارة نصها:

" ان الروح القدس منبثق منذ الازل بفعل داخلي من الله الاب والله الابن في وقت واحد".

وذلك استناداً على أن الروح القدس لا يستطيع ان يأخذ من الاب إلا الذات الألهية المشتركة بينه وبين الابن، وهذا ما يجعل الأقانيم متساوية بذات واحدة ولاهوت واحد.

وبناء على ذلك أجرى تعديل على ما تم الاتفاق عليه في ممجمع القسطنطينية عام 381م. وخرج المجتمعون ببيان عرف بعنوان " لمن يريد الخلاص" بينوا فيه العقيدة الصحيحة ، جاء فيه:

" تقوم العقيدة الكاثوليكية على الايمان باله واحد في الثالوث، ونؤمن بالثالوث المتوحد ، أننا لا نمزج أحداً بالآخر ،ولا نقسم الجوهر ، فهناك واحد يمثل الأب وأخر يمثل الابن ، وأخر يمثل الروح القدس ، لكن الالوهية للاب والابن والروح القدس واحدة، فمجدها واحد وجلالتها ابدية. وكماهو الاب كذلك هو الأبن، والروح القدس ،الأب الذي يخلق والابن الذي لم يخلق ، والروح القدس الذي لم يخلق ، الاب السرمدي الخالد ، الروح القدس الخالد، وبرغم ذلك فليس هنالك ثلاثة خالدون ، بل واحد خالد ، وليس هناك ثلاثة غير مخلوقين بل واحد ،وليس هناك ثلاثة سرمديون بل واحد سرمدي غير مخلوق ، وكما أن الأب عظيم كذلك الابن وكذلك الروح القدس ، ومع ذلك فليس هناك ثلاثة عظماء ، بل واحد عظيم ، وكما أن الاب آله ، كذلك فإن الابن آله ، وكذلك فإن الروح القدس آله ، ومع ذلك فليس ثلاثة أرباب بل رب واحد.

وأننا بإيماننا المسيحي ملزمون باعتبار كل واحد من هؤلاء الثلاية ألهاً ورباً في آن ، ولكننا ملزمون أيضاً بإيماننا الكاثوليكي بأن لا نقول بآلهة ثلاثة أو أرباب ثلاثة ، إن الاب مصنوع من عدم ولم يخلق ولم يولد، أما الابن فإنه من الأب فقط، والابن معاً ،

وهو لم يخلق ولم يصنع ، بل ينبع منهما ،وبالتالي فإن هنالك أباً واحداً لا ثلاثة آباء ، وأبناً واحداً لا ثلاثة أبناء،وروح قدس واحد لا ثلاثة أرواح قدسية.
وفي هذا التثليث ليس هناك واحد قبل الآخر أو بعده ، كما ليس هناك أعظم أو اقل عظمة ، فالثلاثة خالدون معاً ومتساوون وهكذا إذن عبادة الثلاثة عبر الواحد ، وعبادة الواحد في الثالوث. إن على من يريد الخلاص أن يفكر بالتثليث كما ذكرنا".

واعترض نصارى الشرق على تلك الزيادة في قانون الايمان بحجة أن الروح القدس لا ينبعث من الابن ، بل ينبعث عن طريقه ، فعقدوا مؤتمر عام في القسطنطينية عام 879م، عرف بالمجمع الشرقي اليوناني ، رفضوا فيه كل ما قرره نصارى الغرب، وكفروا كل من يعتقد بصدور الروح القدس من الله الابن، وأعادوا من جديد التأكيد على أنبثاقه من الأب الله وحده.

غير ان الخلاف بين الجماعتين الشرقية والغربية ظل قائماً والجدال محتدماً حول هذه القضية ، كل منهم يكفر لآخر ويبدعه لحين وقوع الإنشقاق الاعظم عام 1054م، وفيه أنقسم النصارى إلى كنيستين الأولى غربية أتخذت روما مقراً، والثانية شرقية أتخذت من القسطنطينية مركزاً لها.
وما فتئ نصارى الغرب الكاثوليك متمسكون بما انتهى ذلك المجمع لا يحيدون عنه ابداً، إلى حين انعقاد مجمع لاتران عام 1215م ، حيث أصدر المجتمعون عدة قرارات من بينها ذلك القرار كأعتقاد مسلم به ولا يجوز التفريط فيه، فورد قولهم :
" أننا نؤمن ايماناً جازماً ومن أعماق قلوبنا بأن هناك آلهاً واحداً خالداً لا نهائياً لا يحول ولا يزول ، آلهاً لا نفهمه عظيماً لا يمكن التعبير عنه، الاب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم لكنهم جوهر واحد بسيط جداً في مادته وطبيعته ، إن الأب لم يولد من شئ ، وأن الابن صدر عن الأب فقط ، أما الروح القدس فقد صدر عن الاثنين معاً ،وذلك إلى الأبد وبلا نهاية ، الاب ينجب والابن يولد والروح القدس ينبثق ، وكلهم متساوون في العظمة والخلود".

ومهما يكن من امر فقد استقر آباء الكنيسة على تلك الصيغة للاعتقاد فترة قدرت بنحو قرن من الزمان ، مؤمنين خواصهم وعوامهم ايماناً غيبياً بالله في ثالثوه الاقدس من خلال الابن باعتباره الوسيط الوحيد بين الله والناس من جهة ، وبكونه من جهة أخرى ألهاً وإنساناً في وقت واحد، بعدها صعد تفكيرهم وتحول اهتمامهم من سر الثالوث ، إلى سر التجسد أو التأنس.

ففي أواخر عام 428م ظهر نسطور أسقف القسطنطينية مستنكراً ومعترضاً على الاعتقاد القديم والمنصوص عليه في القانون بأن مريم قد حملت وأنجبت الله، أي أنها أم الله ، فنبه منادياً على فظاعة تلك المقولة ،وقبح ذلك الاعتقاد، فبين للناس:
" أن مريم لم تلد الآله على الإطلاق ، وانما ولدت إنساناً ، وعلى هذا ينبغي أن تكون والدة المسيح وليست والدة الآله لأنها في الحقيقة لم تلد الا بشراً.
فقال في أحدى خطبه:

"تسألون عما إذا كان يمكن أن تدعى مريم ام الله" ، إذن لله أم، إذا صح هذا فالوثنية نفسها معذورة في أن تنسب أمهات لآلهتها ، لكن حينئذ يكون بولس الرسول كاذباً لأنه قال عن لاهوت المسيح أنه كان "بلا أب بلا أم بلا نسب ، لا ياسيدي مريم لم تحمل الله في بطنها ، فإن المخلوق لا يحمل الخالق غير المخلوق ،لكن مريم حملت الإنسان الذي هو أداة الله، لم تحمل مريم الروح القدس من اللوجوس (الكلمة) ، لكن الروح القدس صيغ وكون من العذراء هيكلاً يسكنه اللوجوس."

وقال في مناسبة أخرى:

" أن مريم ولدت إنساناً ، فهي ليست أم الله الحق ، بل أم كلمة الله المشتملة على طبيعتي المسيح الآلهية والبشرية معاً ،وأني لا أعتقد في ابن شهرين أو ثلاثة الآلهية ، ولا أسجد له سجودي لله."

إن نسطور يعتقد ان مريم ولدت المسيح من ناحية ناسوته لامن جهة لاهوته، لأن الأب ولد ألهاً ولم يلد إنساناً ، ومريم ولدت إنساناً ولم تلد آلهاً ، فهي إذن ليست أم الطبيعة الآلهية للمسيح، بل أم طبيعته البشرية ، ومن الافضل والأحوط تسمية مريم أم المسيح ، بدلاً من أم الله ، لأن ما يولد من الجسد هو جسد.

أما اللاهوت فقد جاء للمسيح وكما يرى نسطور بعد ولادته، أي أتحد بعد الولادة بالأقنوم الثاني اتحاداً لا عن طريق الامتزاج ولا عن طريق الظهور ، ولكن كأشراق الشمس في كوة على بلورة ، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم ، والاتحاد هنا بالمشيئة الخاصة لا بالذات ، وإطلاق اسم الآله على المسيح ليس بالحقيقة ،بل مجازياً ،لأن الله منحه المحبة والنعمة ،فأصبح بمثابة ابن له.

فالمولود إذن من مريم هو المسيح ،والمولود من الأب هو الابن الأزلي وعندما حل في المسيح سمى ابن الله بالموهبة والكرامة ، يعني ان مريم ولدت إنساناً اتحد بمشيئة الله اتحاداً لم يفارقه فيه اللاهوت قط منذ ان توحد بناسوته.

أما متى تمت هذه الوحدة وذلك الاتحاد الفريد بين الكلمة وبين الطبيعة البشرية فيرى نسطور ، إن ذلك كله حدث في اللحظات التي تكون فيها الجنين في بطن مريم، وله في كيفية ذلك الاتحاد أقوال كثيرة نختار من بينها ،قوله:

" إن الكلمة لم يولد من مريم ، ولكنه كان ذلك الذي ولد منها ، أنه لم يأخذ بدايته من العذراء ، ولكن في اثناء فترة حمل مريم كان مشتركاً (متحداً) بدون أنفصال مع ذلك الذي كان يتكون رويداً رويداً في بطنها".

وقوله:

" وانني أقول لكم هذا لكي تدركوا أمتياز وسمو الاتحاد الآلهي مع الناسوت الذي تحقق في المسيح وهو بعد جنين، فلقد كان الجنين ورب الجنين في نفس الوقت، أو كان الطفل ورب الطفل".

وفي مكان آخر شرح كيفية ذلك الاتحاد قائلاً:

" ان الله قد خلق الطبيعة البشرية الناسوت أو آدم الأخير بقدرته وبتدخل الروح القدس ، فهو الخالق والذي منح لخليفته هذا الجسد ، وقد كان متحداً منذ خلقه وتكوينه

،فلم يكن اولاً الإنسان يسوع وبعد ذلك الكلمة ،بل الله الإنسان من اللحظة الأولى في عملية التجسد ، فإن عملية الأتحاد بين الجنين المولود في بطن مريم وبين كلمة الله في اللحظات الأولى من الحمل، هذا الابن الواحد الوحيد، ذو طبيعتين متميزتين اللاهوت والناسوت، اللذان أتحدا معاً."

ومقصوده في كل الاحوال أن الأقنوم الألهي في المسيح من الأب ، وطبيعة الإنسان ليست منه، لأنه ولد من مريم ،فهو على هذا جوهران وأقنومان ، إله تام بأقنومه وجوهره ، وإنسان تام بأقنومه وجوهره.

فنسطور إذن يعترف بطبيعتين للمسيح ، طبيعة ابن الإنسان المساوي للأب في الجوهر ، وطبيعة الإنسان المولود من مريم ، والإقتران بينهما هو اجتماع او اتحاد عنصرين بلا خلط ولا اندماج ، فإن اللاهوت ظل لاهوتاً والناسوت ظل ناسوتاً .

على أن اللاهوت والناسوت أفترق كل منهما عن الآخر وسكن الواحد في الآخر لدرجة ان الناظر إليهما لايرى إلا شخصاً واحداً هو المسيح ، فعن طريق عملية الإقتران والتبادل في شخص أقنوم المسيح تتبادل الطبيعتان الصفات والخواص والمميزات الخاصة كل منهما على حدة.

وكل أقواله عن هاتين الطبيعتين تكشف المعنى السابق ،فيقول:

" أنني ادعو المسيح آلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً ، طبيعتان متحدتان غير ممتزجتين ، واننا نعترف بناسوت ولاهوت الطفل، وأننا نتمسك بوحدانية الابن في طبيعتي اللاهوت والناسوت.

ويقول أيضاً:

" لاجل هذا السبب قلت بأن الله الكلمة قد مر ، ولم أقل ولد، لأنه يستمد أصله منها، لان الطبيعتين هما مسيح واحد بفضل الاتحاد ،فإن المولود من الأب بحسب اللاهوت ،والمولود من القديسة مريم بحسب الناسوت واحد وسيظل واحداً بسبب اتحاد الطبيعتين."

وخلاصة اعتقاد نسطور وزبدة رأيه في طبيعة المسيح هي:

إن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة، وأن طبيعة اللاهوت التي للمسيح غير طبيعية ناسوته ، وأن طبيعة اللاهوت لما توحدت بالناسوت صارت الطبيعتان بجهة واحدة واردة واحدة ،واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصاناً ، ولا يمتزج بشئ، والناسوت يقبل الزيادة والنقصان ،فكان المسيح بتلك آلهاً وإنساناً ، فهو إله بجوهر اللاهوت الذي لا يزيد ولا ينقص، وهو إنسان بجوهر الناسوت القابل للزيادة والنقصان.

وهكذا انتهى نسطور في كشفه لسر التجسد إلى أن للمسيح طبيعتين كاملتين متباينتين ، تتمتع كل منهما وبالتساوي وباستقلال تام في الوجود والقيام بالذات وللذات فتسند إليها الأفعال اسناداً مباشراً لا مجال للاشتراك فيه بأي وجه من الوجوه ولأجل هذا فإن المسيح يقوم بأقنومين لابأقنوم واحد ، ولكن بالنظر إلى الاتحاد والوحدة بين الطبيعتين لا نواجه حينئذ الابأقنوم واحد.

والاتحاد نفسه اشبه بالاتصال والقربى عن طريق المحبة والرضا والانس ، وهو الذي يجعل فى شخصية المسيح تبادلاً بين عنصرين بمعنى أن اللاهوت يعمل بواسطة شخص الناسوت ،والناسوت يعمل بواسطة شخص اللاهوت،وبالتالي فالمسيح آلهاً بفعل فعل الإنسان ،لأنه دائماً أنسان ،وهو إنسان يفعل افعال الله لأنه دائماً آله.

وما أن انتشر مذهب نسطور وذاعت أراءه وحظيت بالرضا والقبول، حتى تصدى له التأليهيون ، منهم على سبيل المثال أسقف الاسكندرية كليرس الذي أصدر عام 429م بياناً خاطبه فيه قائلاً:

" أن كان الأمر كما قلت فمن عبدالمسيح فهو مسئ ،لانه قد يكون عبد قديماً ومحدثاً ، ومن ترك عبادته فقد كفر ، لأنه يكون قد ترك عبادة القديم كما ترك عبادة المحدث ، ومن عبدالآله دون الإنسان فلم يعبد المسيح ، إذ كان لا يستحق ان يقال مسيحاً من احدى جهتيه دون الآخرى."

أما عن تسمية مريم البتول بوالدة الآله ،فلا يعني أن مبدأ اللاهوت منها ، بل ان المولود هو أله كامل وإنسان كامل.وهي تسمية وردت عند كثيرين من مشاهير المعلمين والآباء ، وبها سمت إلى منزلة لا تعادلها فيها امرأة من نساء العالمين."

وظل الخلاف محتدماً بين نسطور وبين غيره من الأساقفة ، طيلة ثلاث سنوات لم يصلوا فيها إلى اتفاق ،فكتبوا إلى الإمبراطور ثيود وسيوس الثاني يطلبون منه عقد مجمع عام، فقبل ودعا إلى مؤتمر يعقد في مدينة أفسس عام 431م، ولبى الدعوة بالفعل مئتا أسقف لم يتخلف الا اسقف انطاكيا وممثلو روما.

وانتهى المؤتمرون إلى قرارات كان في مقدمتها تثبيت قانون الايمان المجمع عليه في مدينة نيقيه عام 325م، وكذلك التعديلات التي أجريت عليه في مجمع القسطنطينية عام 384م، أما بخصوص للنقاط التي اثارها نسطور حول التجسد ، فخلصوا إلى قرارين:

أولهما : ان مريم العذراء القديسة ولدت آلهنا وربنا يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة ، ومع الناس في الناسوت وفي الطبيعة.

والمقصود ان المسيح آله حق وإنسان معروف بطبيعتين أي بطبيعتين واقنوم واحد ، أو بعبارة أدق متوحد الأقنوم.

وثانيهما : أن سر التجسد قائم في اتحاد اللاهوت والناسوت في اقنوم الكلمة الآزلي ، بلا أمتزاج ولا تغيير.

فإذا كان نسطور قد جزأ المسيح الواحد إلى جزئين، ونص صراحة على الفصل بين الله والإنسان ، معترفاً في الوقت نفسه بوحدة معنوية بينهما ، تكاد تتحول في مجموعها إلى وحدة مجازية ،ليشرح من خلالها ما يجمع بين لاهوت المسيح وناسوته من صلة وعلاقة ،فإن مجمع أفسس قد قرر وشدد ما يجب الايمان به، وهو:

أن بين طبيعتي ابن مريم البشرية والآلهية وحدة حقيقية تتناول كلا منهما ذاته،بحيث تستاهل مريم عن جدارة واستحقاق اللقب المعروفة به في التقاليد المسيحية وهو :أم الله.

وما أن استراح التأليهيون من اقوى خصومهم حتى فجأهم اوتيخا(اوتينميوس) اسقف القسطنطينية عند رده على نسطور براي ذهب فيه إلى كمال طبيعة اللاهوت في المسيح ، أي ان للمسيح طبيعة واحدة وان جسده بمحض كونه جسد آله ليس مساوياً لجسدنا في الجوهر ، لأن الطبيعة البشرية اندثرت باتحادها مع الطبيعة الآلهية .فوقف بهذا على طرف النقيض من نسطور.

استند اوتيخا في مذهبه هذا على حجة جدلية أوجزها في قوله:

" إذا حكمنا على المسيح بأن له طبيعتين فذلك مذهب نسطور، ولكننا نقول أن المسيح له طبيعة واحدة وأقنوم واحد ، لأنه من طبيعتين كانتا قبل التجسد ،فلما قبل التجسد زالت عنه وصار طبيعة واحدة ،وأقنوماً واحداً.

ثم قال أيضاً مؤكداً على وحدة طبيعة المسيح:

" إن جسد المسيح ليس هو مع اجسادنا بالطبيعة ،وأن المسيح قبل التجسد من طبيعتين ،وبعد التجسد طبيعة واحدة."

ومقصوده ان المسيح قبل الاتحاد كان في طبيعتين ،وبعد الاتحاد أصبح طبيعة واحدة ، وذلك بعد أن فنى الناسوت في اللاهوت ، بعد التجسد ،ومن ثم فليس في المسيح طبيعتان بشرية وآلهية بل له طبيعة واحدة هي الطبيعة الآلهية ،وهو بهذا يرمي إلى أبطال بشرية ابن الله المتجسد من الأساس.

وخلاصة ما انتهي إلية أوتيخا أن الناسوت الذي أخذه المسيح من مريم والذي كان كاملاً حقاً ،قد اتحد بالكلمة الآلهية اتحاداً طبيعياً ،استحال معه القول باثينية نسطور، ومع ان المسيح قد قام بالفعل في طبيعتين ، لكنه في ذاته طبيعة واحدة، لأنه واحد وبمشيئة واحدة هي المشيئة الآلهية.

ولما كان رأي اوتيخا مضاد ومناهض للاعتقاد الذي اعتمدته المجامع الثلاثة الكبرى ،فقد دُعيِ إلى مجمع محلي لمناقشته ومطالبته بالعدول عن موقفه ،ولكنه لم يمتثل للدعوة ،وفي الجلسة السابعة للمؤتمر حضر بصحبة بعض الرهبان وزمرة من الحرس الإمبراطوري فسئل:

- هل تعترف بأن المسيح مساو للأب في جوهر اللاهوت ومساو لأمه في جوهر الناسوت.

فأجابهم:

- أن المسيح من طبيعتين قبل الاتحاد ،وأنه طبيعة واحدة بعد الاتحاد.

عندها أدانه المؤتمرون وجردوه من كل رتبه الكهنوتية وعزله من رئاسة ديره، فكتب إلى البابا في روما متظلماً من حكم المجمع ،فكتب البابا إلى اسقف القسطنطينية يستوضحه عن حقيقة الخلاف ، فأرسل إليه نص أعمال المجمع الذي حكم فيه عليه، فعقد البابا في روما مؤتمراً فُحصت فيه الوثائق ودرست في جوانبها المختلفة .

وأخيراً وافق على جميع ما ورد فيها، ثم أعلن على موافقته على القرارات الصادرة ضده في رسالة خاصة وجهها للإمبراطور.

ولم يذعن اوتيخا وأتباعه لقرار البابا ، فلجأوا إلى اسقف الاسكندرية لمساعدتهم ،فعقد هو الآخر مجمعاً حله من جميع القرارات السابقة ،ثم ارسل للإمبراطور يدعوه لعقد مجمع عام ، عقد في افسس عام 449م، برئاسة اسقف الإسكندرية ،تليت فيه رسالة الإمبراطور ،ثم طُلب من وفد روما تلاوة رسالة البابا إلى اسقف القسطنطينية فرفضوا عندئذ اشتد الجدل بين المؤتمرين ،وأرتفعت حدة النقاش ،مما دفع بالوفد البابوي إلى الفرار وتبعهم بعض الأساقفة وأستولى الرعب على الباقيين الذين وافقوا على كل قرارات المجلس ،وأبرزها القرار القاضي:

بلعن كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح.

على أثر ذلك كتب بابا روما إلى أسقف القسطنطينية بضرورة عقد مجمع عالمي جديد، لمعالجة تداعيات المؤتمر الأخير ،فوافق وأمر بذلك فأجتمع في مدينة خلقيدونية عام 451 م حوالي 630 أسقفاً،بينهم نواب عن البابا ،ووضع الأنجيل في منتصف القاعة ،وتصدر المجلس وجهاء الدولة وأعيانها.

وفي الجلسة الأولى اقر المؤتمرين بأن كل ما جرى في أفسس كان قسراً وظلماً ،وفي الجلسات التالية وافق الجميع على بطلان كل ما صدر فيه من قرارات ، وبعد جدل طويل حول آراء ومعتقدات أوتيخا ،خرج الأساقفة بالنص التالي:

" أننا نعلم جميعنا تعليماً واحداً تابعين الآباء المقدسين ونعترف بأبن واحد هو نفسه ربنا يسوع المسيح، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت ،آله حقيقي وإنسان حقيقي ، وهو نفسه من نفس واحدة وجسد ،مساو للاب في جوهر اللاهوت ،وهو نفسه مساو لنا في جوهر الناسوت ، مماثل لنا في كل شئ ماعدا الخطيئة ، مولود من الأب قبل الدهور بحسب اللاهوت.

وهو نفسه في آخر الايام مولود من مريم العذراء والدة الآله بحسب الناسوت لأجلنا ولأجل خلاصنا، ومعروف هو نفسه مسيحاً وابناً ورباً ووحيداً واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال ، من غير ان ينفي فرق الطبائع بسبب الاتحاد ،بل إن خاصة كل واحدة من الطبيعتين مازالت محفوظة تؤلفان كلتاهما شخصاً واحداً ،وأقنوماً واحداً لا مقسماً ولا مجزءاً إلى شخصين ،بل هو ابن وحيد هو نفسه الله الكلمة الرب يسوع المسيح كما تنبأ عنه الانبياء منذ البدء ،وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه ،وكما سلمنا دستور (قانون) الأباء"

لا تختلف قرارات مجمع خلقدونية كثيراً عن قرارات المجامع السابقة ،ففيها حدد الأساقفة الايمان الصحيح بالطريقة المالوفة .وذلك بقراءة قراراته علناً وبصورة رسمية ،حيث أنتهوا إلى ان مريم العذراء ولدت ألهاً هو المسيح الذي مع أبيه في الطبيعة الآلهية.، ومع الناس في الطبيعة الإنسانية ،ففيه طبيعتان لا طبيعة واحدة، فالألوهية طبيعة لوحدها ،والناسوت طبيعة لوحدها ،التقتا معاً في المسيح.

أو بمعنى أوسع:

إن المسيح له طبيعتان ، إحدهما إنسانية يتشارك فيها الناس والاخرى لاهوتية ، وأقنوم الابن مكون من الطبيعتين ، تأكيداً منهم على أنهم يقفون على طرفي نقيض من

رأي نسطور ،وفي الوقت نفسه يناهضون قرار مجمع أفسس القاضي بالطبيعة الواحدة وبهذا شهدوا أن للمسيح طبيعتان واقنوم واحد.

وأخيراً وضعوا الصيغة العقدية النهائية في المسيح وهي:

إن المسيح ابن الله الوحيد ،هو رب واحد في طبيعتين بدون أمتزاج ولا تغيير ، وبدون تقسيم وتفريق ،ودون أن يلقى هذا الاتحدا تمايز الطبيعتين ،ومع بقاء خواص كل من الطبيعتين على حالها، أو بالعبارة الأكثر شيوعاً الآن في اعتقادات النصارى:

- أقنوم واحد في طبيعتيه الكاملتين ،البشرية والآلهية ،ورغماً عن كل هذا تبقى هنالك قضية تحتاج إلى شرح وتوضيح وبيان شاف، وهي كيفية الاتحاد بين طبيعتين مختلفتين ومتناقضتين ،فحاول ابن البطريق أحد مؤرخي العقيدة المسيحية في رده على القائلين بالطبيعتين والطبيعة الواحدة تقديم أجابة حاسمة وتفسير نهائي لذلك الاتحاد أو تلك الخلطة على حد تعبيره ،فقال في مقدمة معالجته للقضية:

" أن من عظيم تدبير الله وكمال عدله ،وجليل رحمته أن بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شئ ،وهي التي من جوهره ، ليست مخلوقة ،ولكن مولودة منه قبل كل الدهور ،ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط،ولا كانت البرية منه قط ، ولا من روحه الخالقة ولا من جوهره.

فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت الذي لم يزل ولا يزال ، فالتحمت من مريم العذراء، وهي جارية طاهرة مختارة من نسل داؤد أصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين ،وطهرها بروح القدس روحه الجوهرية ،حتى جعلها أهلاً لحلول كلمة الله الجوهرية بها، فأحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها بمسرة الأب ،ومؤازرة روح القدس ،خلقاً جديداً من غير نطفة آدمية جرت عليها الخطيئة ،ومن غير مجامعة بشرية ،ولا انتهاك عذرية تلك الجارية المقدسة.

فهو إنسان تام بجسده ونفسه الدموية وروحه الكلماتية التي من صورة الله في الإنسان وشبهه ،فكانت مسكناً لله في حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من خلائقهم كلها."

ثم يقول بعد هذا عن ذلك الاختلاط أو الاتحاد:

" فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة بجسدها ودمها وروحه العاقلة الكلماتية ،وصارت كلمة الله بقوامها قواماً لتثليث الناسوت التي كمل جوهرها بتقويم قوام كلمة الله اياه ، لأنها لم تخلق ولم تك شيئاً.

وليس حلول كلمة الله والتحامها بجوهر الناسوت عن انتقال ولا تغير ولا احتيال .فلا الالهي احتال ان يكون ألهاً خالقاً ،ولا الإنساني أحتال أن يكون ناسوتاً،وذلك لأن الاحتيال والتغير والانتقال إنما يلزم الاتحاد أو الخلطة أو إذا كانت من خلقين ماديين ثقيلين غليظين ، وذلك لأن الخلطة أو الاتحاد لا تخرج في مجموعها عن ثلاثة أنواع:

الأول: خلطة بأختلاط بين الطبيعتين الثقيلتين واحتيالهما وفسادهما ، مثل خلطة الخمر والماء والخل والعسل والذهب والورق والرصاص والنحاس ، فإن ذلك كله احتيالاً وفساداً لأن مزاج الخمر والماء ليس بخمر ولاماء ،وكذلك خلطة الخل والعسل قد

صارت لا خلاً ولا عسلاً ، لأحتيال كل واحد منهما عن طبعه واختلاطهما بفسادهما وتغييرها عن حالها.

والثاني: خلطة تفترق فيها الطبيعتين الثقيلتين ،وقد تعرف من تلك الخلطة كل واحدة من الطبيعتين ثابتة في الأخرى ،مثل الزيت والماء في مصباح واحد ، ومثل الحرير والقطن في ثوب واحد ، وما أشبه ذلك ، مما لا ينبغي أن يسمى خلطة مع افتراق الطبيعتين بعضها عن بعض."

ومعروف بنفسه أن الخلطتان الأولى والثانية ماديتان وليس فيها شئ روحي ، وهاتان الخلطتان ،وكما يقول ابن البطريق:

" اختلطتا خلطة ملقمة ممتزجة ،صارت إلى احتيال وفساد، وأن قامت على حالها لا تلتحم ،ولا يمتزج بعضها ببعض ،فهي على وجه خلطة الافتراق ،ومنقطعة بعضها من بعض ،وأن اجتمعت في وحدة واحدة ،وهي أبداً أما إلى فساد ،وأما إلى أنقطاع."

أما النوع الثالث والأخير الذي أجتمع فيه المادي بالروحي ، فهو خلطة حلول بلا أختلاط ولا احتيال ولا فساد ولا افتراق ولا انقطاع ،وعنها يقول:

" هي نفاذ الطبيعة الروحانية في الطبيعة الثقيلة السلفية حتى تنشر في جميعها وتحل بكلها،فلا يبقى موضع من الطبيعة الثقيلة السلفية خلواً من الطبيعة الروحانية. ولا احتيال من الثقيلة الجسمانية عن طبيعتها الغليظة الثقيلة ولا تغيير ولا فساد لاحداهما.

وذلك مثل خلطة النفس والجسد ، ومثل خلطة النار والحديد في قوام جمرة واحدة ،فهي جمرة واحدة بالقوام من طبيعة نار ملتحمة ، مخالطة لطبيعة الحديدة بلا فرقة ولا انقطاع . ولا تخليط احتيال وفساد ، وقد انتشرت النار في جميع الحديدة ولبستها ، واانالت النار الحديدة من قوامها وقوتها حتى انارت الحديدة وحرقت .ولم تنل من ضعف الحديدة شيئاً من السواد ولا البرودة."

وتلك الخلطة أو الاتحاد هي التي كشفت لنا عن سر التجسد ، لأنها وكما تبين لنا خلطة حلول بها ظهر المسيح ابن الله الوحيد للوجو، نور من نور أ له حق من اله حق، مولود غير مخلوق ،من جوهر ابيه وطبيعته، ولدته مريم العذراء في آخر الزمان جامعاً للطبيعتين الألهية التي لم تزل قبل كل بدء ،والناسوتية التي كونت في زمان مقدر بالحساب.

فهو على هذا مسيح واحد أزلي ذو طبيعتين ألهية لم تزل وناسونية التحم بها من مريم العذراء ،فقوامه الذاتي هو الطبيعة الالهية والناسونية ، جامعاً لهما بلا اختلاط ولا فساد ولا أفتراق ولا ناقطاع ،وبها كمل ايمان النصارى.

بأن الله ثالث ثلاثة ،وان عيسى عليه السلام ابن الله،وله طبيعتين لاهوتية وناسونية ، وتلك الطبيعتان صارتا شيئاً واحداً فصار اللاهوت إنساناً محدثاً تاماً مخلوقاً ،وصار الناسوت ألهاً تاماً خالصاً غير مخلوق.

الباب الثالث
النتائج

الفصل الأول
دين جديد

يحمل اسم الله تعالى الأحد معنى يدور حول الإنفراد والتفرد، مثل كونه لا يتجزأ ولا يتثنى ،ويستحيل تقدير الانقسام في ذاته ،والمتفرد في ذاته تفرداً لا يتصور مشاركة غيره فيه أصلاً ، والذي لا نظير له ولا شريك ،ولا تعتريه صفات الحوادث مثل التغير والتحلل والاحتياج إلى غيره.

كما أن الاسم من جهة أخرى لا يقصد به العدد ،مثلما اعتاد الناس على القول ان اول العدد أحد وواحد،وذلك لأن المراد به عدم قبول الله للتجزئى والتركيب ،فالشئ قد يكون واحداً ولكنه بالنظر إلى غيره مركب ،والمركب ناقص مما يدل على أن المقصود باسم الله الأحد المبالغة في الوحدة بلا مثيل ولا نظير ، وحدة لا كثرة فيها ولا تعدد بأي معنى من المعاني.

أما الأحدية كصفة للذات الإلهية ،فهي اعلى الصفات على الإطلاق ،تليها مباشرة الواحدية مترتبة ترتيباً طبيعياً عن الالوهية وليس العكس ،ومفاد ذلك ان الألوهية عبارة عن استغناءه تعالى عن الكل واحتياج الكل إليه ،ولو لم يكن واحداً مطلقاً لكان محتاجاً إلى اجزاءه ،ومن هنا استوحيت الألوهية الوحدة وليس العكس.

ويأتي اسم الله تعالى الواحد مستقلاً عن اسم الأحد وله ثلاثة معان:

الأول: ما قامت به الوحدة ،وهو كونه تعالى بحيث لا ينقسم ولا يتجزأ في نفسه ، ولا في صفة من صفاته، ولا في وهم ولا في وجود ،واصل ذلك كله الانفراد في الذات والصفات ويقابله الكثرة.

الثاني: أنه مالا نظير له في ذاته ولا شبيه له في أفعاله ، وانفراده بسائر بما يستحقه من صفات لا يشاركه فيها غيره .

الثالث: أنه كان قبل الخلق واحداً متوحداً بالأزل لا ثان له ، ثم أبدع الخلق فكان الخلق ثانياً ، بل هو كان ولا ثاني معه ، فهو واحد لاتحاده بالأزلية والأبدية ،والخلق ثانياً له لاقترانه بالحدوث لا قبله شئ ولا بعده شئ ،ولا في شئ ولا على شئ، ولا لشئ ولا مع شئ،فيكون ذلك الشئ ثانياً معه، فهو الواحد الذي يمتنع ويستحيل ان يكون له شئ ثانياً معه.

ثم يظهر الله تعالى بهذه الثلاثة مجتمعة بصفة الألوهية ظهوراً خالصاً ،فيتجلى على الوجود كله باسماءه وصفاته كل صفة منفردة عن الاخرى ،ومتميزة عما سواها، ولذلك عدت الالوهية مهيمنة عما عداها ،ومثلت بهذا الاعتبار قمة الظهور الذاتي لله تعالى.

وفيها عُرف الله تعالى بأخص صفة من صفاته وهي صفة المكلِّف ، ثم أضافت هذه الصفة إلى وجود الله وذاته ماله من تفرد ،وأعطت لكل مخلوق ماله في الإطار العام للتكليف ، وأفردت الإنسان عن غيره من المكلفين بالخاصة التي جعلت منه عمود فكرة التكليف ودعامته الرئيسية.

ثم استلزمت الألوهية وأوجبت اختصاص المكلَّف وتفرده بالوحدانية ،ليس كسمة للواحد ، ولكن لتصبح تعبيراً ومظهراً خارجياً لكل من الأحدية والواحدية والألوهية ، وعلى نحو تبرز فيه فكرة المكلَّف وصفته كمحور للثلاثة معاً.

وعلى هذا يستفاد من الوحدانية ثلاث حقائق لا تخرج في مجملها مما سبق عرضه ،وهي:

- أن الوحدانية بالنسبة لذات الله تدل على أنها ذات غير مركبة من اجزاء ولا متعددة ، بحيث يكون معه أله ثان فاكثر. فهي واحدة لا تعدد فيها ولا تركيب.

- أن الوحدانية بالنسبة للاسماء والصفات تعني انها غير متعددة من جنس واحد ، كأن تكون له قدرتين فأكثر أو يكون لغير الله صفة تشبه صفته، ، أو لأحد من الخلق قدرة يوجد ويعدم بها، كقدرته تعالى ، أو إرادة تخصص الشئ بالوجود والعدم كإرادته ، أو علم محيط بالأشياء كعلمه.

- إن الوحدانية بالنسبة للأفعال تعني أنه لا يوجد لغيره تعالى فعل من الافعال على وجه الخلق والايجاد، بل هو وحده الفاعل لكل فعل، والموحد لكل موجود ، فلا مؤثر سواه في اثر ما ، ويدخل في ذلك نفي تأثير القوى الطبيعية ، وإذا نسب الفعل إلى قوة منها فعلى جهة السبب في الخلق ، لينفرد الله تعالى وحده بالإيجاد والإعدام.

وعندما ينتسب الانسان لله تعالى بصفة أخص من صفة المخلوق هي صفة المكلَّف ، فإن طبيعة التكليف الإلهي تقتضي منه وجود معنى به تحقق أحدية الله ووحدايته ووحديته مجتمعة كحقيقة مخصوصة وموجودة خارجة وجوداً فعلياً،وذلك تمام معنى التوحيد.

ويرتكز توحيد الإنسان لله تعالى كحركة أختيارية نابعة من داخله على قاعديتن جوهريتين:

- علم ومعرفة يقينية بأن الله هو كما أخبر عن ذاته العلية

- وإقرار واعتراف به ، يثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه في آن معاً ، أو بعبارة أخرى ، اثبات في نفي ،ونفي في إثبات.

ويطلق على كل من الإقرار والعلم اسم الاعتقاد ، وذلك لانهما أتخذا في القلب صورة العقد الجامع بين طرفي المخبر والخبر فعرف الاعتقاد هنا بالحكم الجازم المطابق للواقع والذي لا يقبل التشكيك بحال من الأحوال، عندئذ يسمى أيماناً لا اعتقاداً، إذ هو اعتقاد استقر في القلب إلى حد الرسوخ ، ولا يقل في قوته عن اليقين، وفوق ذلك استقل عن العقل لاعتماده أولاً واخيراً على سكون النفس وأطمئنان القلب.

أن الذي جعل الاعتقاد هنا ايماناً يعود إلى أن حركة القلب ليست بقصد القبول والإذعان ،وإنما هي حركة بقصد الانتساب إلى الله تعالى ،بإرادة حرة ورغبة صادقة، ودون ضغط من قوى أخرى، فيها من الشدة والصلابة ما لا يمكن حلها بسهولة ، وفيها من الثبات والدوام ما يدل على استقرارها وتمكنها من القلب.

وأي علاقة أو رابطة بين الله تعالى وبين الإنسان لا تستند على الايمان وما يرجع إليه ويتفرع عنه ، فهي تخرج المعتقد تلقائياً من التوحيد إلى الشرك ،ومن اليقين إلى الشك

وذلك لاستحالة وجود مرتبة وسطى أو ثالثة بين الاثنين ،ومن ثم يحكم عليه بالضرورة الاعتقادية والعلمية بأنه مفارق للتوحيد لا الايمان ، فيوسم بسمة الكافر الجاحد.

وأنزلت كل الأديان والرسائل الإلهية وعلى رأس دعوتها للناس توحيد الله، علماً ومعرفة واعترافاً وإقراراً ،لان التوحيد ،وكما عرفنا – يشكل قاعدة العلاقة ومحور الانتساب ، ماعدا المسيحية ،فهي وحدها دون سائر الأديان السماوية قدمت للناس إيماناً واعتقاداً ،لم يكن لهما سائق عهد به ، ولا مكان فيه على الإطلاق للتوحيد ، لابالمعنى الذي سقناه قبل قليل ،ولا بأي معنى من المعاني المعروفة عنه،وذلك لأن هذا الايمانم يستند – وكما عرفنا – على أصول أو (اقانيم) ثلاثة، استقرت في النهاية كأساس للعلاقة بين الله تعالى وبين الإنسان.

وعلى هذا فهو وبلا أدنى شك دين جديد يرتكز الايمان فيه على أصول لم ترد قط على السنة رسل الله وانبياءه ، ولا توجد كلمة أقنوم في كتاب من كتبهم، لا أقنوم واحد ولا أثنان ولا ثلاثة ولا أكثر ،ولاخص الله بها أحد من الانبياء دون غيره، وليس للنصارى فيما أدعوه من الاقانيم حجة أصلاً لا عقلية ولا شرعية ،بل الحجج العقلية والشرعية تصرح وتدل على نقيضها.

كما لم يدع أحداً من الأنبياء أو تحدث مطلقا عن الثالوث أو التثليث ،أو حتى أتى على ذكره ولو عرضاَ ،ولم يكن لهم به علم ولا معرفة ،بل ظلت عقيدة مجهولة تماماً منذ أن خلق الله العالم حتى خرج بها للناس دعاته والمبشرين بها، ابتداعاً من عند انفسهم ليثبتوا بها من المعاني والاعتقادات ما يحقق مقاصدهم ومرادهم.

ويقال الشئ نفسه عن الابن ،فلم ينقل قط عن أحد من الانبياء أن أطلق أو سمى كلمة الله أو صفة من صفاته ولداً ولا أبناً، ولا قال بأن هذا يتولد عنه ، أو هو مولود له، كما لايوجد في كتب الأنبياء أطلاق اسم الاب ويراد به اب اللاهوت ،ولا أطلاق اسم الابن ويراد به شئ من اللاهوت ، لا كلمته ولا غير كلمته ،ولا يكون لفظ الأب الا لأبن مخلوق.

ثم أن أدعاءهم يتجسد كلمة الله الخالقة في إنسان مخلوق ، وهو المعبر عنه باتحاد اللاهوت بالناسوت كاسم علم على المسيح، شئ ممتنع عقلاً ،وكل ممتنع بصريح العقل يستحيل ان يخبر به نبياً أو رسولاً ، فإن الأنبياء والرسل إنما تخبر بما لا يعلم بالعقل أنه ممتنع أو مستحيل ، بكل ما يعلم بصريح العقل أنه ممتنع فالأنبياء والرسل منزهون ومبرأون من الأخبار به أو الاعلام عنه.

وكذلك الروح القدس لم يستخدمه الانبياء كآله كامل في الألوهية والصفات والأفعال،بل أقتصروا في معناه على ما ينزله الله تعالى على الانبياء والمرسلين والصديقين والصالحين ،من التأييد لهم وتقويتهم واقدراهم نفسياً وبدنياً في الدعوة والرسالة ، أو ما ينزله تعالى على قلوبهم من الهدى ونور الحق ، وغيرها من طرق النصر والمؤازرة.

وورد روح القدس في القرآن حاملاً ذلك المعنى في حق عيسى عليه السلام ، فقال تعالى حاكياً عنه (البقرة- 87):

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾
وقال أيضاً مخاطباً له (المائدة -110):
﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...﴾
والتأييد في كلا الموضعين بمعنى التقوية ،أي الانعام عليه بالقوة المعنوية بشقيها قوة الرسالة ،ومجابهة خصومها بالحجة والبرهان ،وقوة الصبر على أذى أعداءه ، فلا ينهزم من أمامهم مهما تكالبوا عليه.
أما إذا وجد كلام المسيح عليه السلام فيه ذكر للثالوث كما في الرواية التي أنفرد بها انجيل متى وحده (11:28):
" فأذهبوا إذن وتلمذوا جميع الأمم وعمودهم باسم الاب والابن والروح القدس".
فإن المسيح لم يقل على الإطلاق ان الله هو الأب والابن والروح القدس .ثلاثة آلهة في أله واحد، واله واحد في ثلاثة آلهة ،فهو كذب بين واختلاف صريح ، ولاقال عن نفسه أنه أله حق ،ولا أتى على ذكر الاقنوم في أحاديثه الكثيرة ،ولا قال لأي من حواريه ان الله أتحد أوله طبيعة واحدة، أو طبيعتان ،إلى غيرها من الألفاظ المفسرة للثالوث المتجسد.
يضاف إلى ذلك أن العهد الجديد وهو النص الانجيلي الذي يفترض تعويل التأليهيين عليه في بناء عقيدتهم ،لا يؤيدهم صراحة في دعواهم ومناداتهم بالتثليث والتجسد،وحتى ولو تضمن أو أحتوى وكما يقول عبدالاحد داود تلميحاً أو اشار اليهما من غير تصريح:
" فإنه ليس بحجة ابداً ، لإن المسيح لم يشاهده" ، ولم يكتبه ، ولا يوجد في كلامه الذي صرح به ،ولا يوجد في شكله الحالي ومضمونه ، على الأقل طيلة القرنين الذين جاء من بعده."
إن رواية متى عن ذلك الثالوث هي بلا شك مدعاة للتساؤل لتفرده وحده بها دون سائر كتاب الانجيل ،وهي اساس الايمان وجوهر الاعتقاد ،ولكن لا أحد من حواريين المسيح يعرف عنه شيئاً ولم يثبت أحد من رواة الأنجيل هذه الصيغة ثلاثية الاشكال التي يرتبط فيها كل واحد من هؤلاء بالآخرين ارتباطاً وثيقاً ، مما يدفع بها بقوة شديدة إلى دائرة من الشك والارتياب.
والشئ نفسه يقال عن اقوى صيغة للتثليث والورادة في رسالة يوحنا الأولى (5: 7-8) ونصها:
"هي الحقيقة يشهد لها الروح القدس لأنه هو حق ذاته ، فإن هناك ثلاثة شهود في السماء الاب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد."
فهي أيضاً من النصوص المشكوك في صحتها ونسبتها أقحمت بين نصوص الرسالة لتعطي لعقيدة التثليث قدسيتها وحجيتها ،بل هناك من يذهب من محققي النصرانية إلى أن النص بشكله الذي يشير إلى ثلاثة هم واحد،لا يوجد له في اقدم نسخ الرسالة وأصحها ،ولا وجود له في أي مخطوطة أو نسخة يونانية كتبت قبل القرن السادس عشر، ،وهو الذي أجبر تراجمة الرسالة إلى اللغات الحديثة إلى حذفه تماماً

بأعتباره نصاً دخيلاً أقحم عن قصد ليكون داعماً واساساً لعقيدة الثالوث القائلة بأن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة.

وعلى اي حال فإن الدين الذي عليه النصارى الآن ليس هو دين المسيح نبي الله ورسوله ، بل هو دين ابتدعوه بعد رفعه عليه السلام بفترة طويلة،وكل من تدبر اديان الانبياء ووقف على حقيقة رسالاتهم للناس تبين له مناقضته لها، ومضادته لما فطر الله عليه عباده ،وذلك لأن انبياء الله كلهم وكما يقول ابن ثيمية:

" أخبروا بأن الله واحد، وكفّروا من أثبت الهين أثنين ،و أمروا بالتوحيد ودعوا إليه ،وحرموا الشرك وكفرّوا أهله ، وأخبروا أن الله واحد ،وكان مرادهم بذلك توحيده ،وأنه لا يجوز أن يعبد الا الله ،وأنه لا يستحق العبادة ألا هو".

وبغض النظر عن مجمل الانتقادات التي جوبه بها ، التثليث كعقيدة أريد لها أن تحل محل التوحيد ،وتقوم مقامه في ايمان الناس ،فهناك حقيقتان ظلتا ملازمتان لها إلى يومنا هذا ،وهما:

- عدم معقوليتها.
- وتناقضها

فقد اتفق جميع العقلاء على أن من رأى رأياً أو قال قولاً وهو لا يتصوره ولا يفهمه ، فإن كلامه مردود لا يقبل منه ، ويحكم عليه بالزيف والبطلان ،والنصارى في عرضهم لمعتقدهم ذلك يدعون أنهم يفهمونه ويتصورونه ، فإذا طلب منهم بيانه حتى يُفقه ويفهم ويتصور ، أجتهدوا ما وسعهم الجهد في أفهامه للغير أفهاماً يشعرون فيه بالإرهاق والمشقة ،فإذا عجزوا أو يئسوا من أفهام غيرهم بحقيقته ، تذرعوا بصعوبة إدراكه أو الإحاطة به، لان العقل عاجز عن ذلك كله ،وسوف يتضح ويتجلى بكامله يوم القيامة، وذلك يعني وكما يذهب ابن تيمية:

" أن قولهم في نفسه باطل ولا حقيقة له، وهم لم يتصوروا معقولاً ثم عبروا عنه، حتى يقال ، قصروا في التعبير ،بل هم في ضلال وجهل لا يتصورون معقولا ، ولا يعرفون ما يقولون ، بل ولا لهم اعتقاد يثبتون عليه المسيح ،بل مهما قالوه من بدعهم كان باطلاً ،وكانوا معترفون بانهم لا يفقهون ما يقولون لهذا يقولون :هذا فوق العقل ،وماهو فوق العقل ليس لأحد أن يعتقده ولا يقوله برايه."

ثم يضيف إلى ما مضى قائلاً:

" فإن كانوا لا يفقهونه ولا يعقلونه ،لزم أنهم قالوا على الله مالا يفقهونه ولا يعقلونه ،قولاً برأيهم وعقلهم ، لا نقلاً لالفاظ الأنبياء ،فإن من نقل ألفاظ الأنبياء الثابتة عنهم لم يكن عليه أن يفقه ويعقل ما يقوله."

أما اثباتهم إلهين ،ثم بعد فترة اثبتوا الروح القدس ألهاً ثالثاً فأصبحت الألهة ثلاثة ثم زعموا ان الثلاثة واحد والواحد ثلاثة ،فشئ لايصح ،ولا يجوز الاعتقاد في شئ واحد أنه ثلاثة مع اعتقاده في الوقت نفسه أنه واحد، لأن في هذا تضاد وتناقض وبطلان واضح لكونه وببساطة شديدة لا يعقل.

فإذا كان الاعتقاد بالتثليث فيه من التناقض والتعارض ما فيه فهو بالتأكيد لا حقيقة له ،بل أن مجرد تصوره كاف للدلالة على فساده من غير حاجة إلى دليل ، وأن كانت الأدلة على فساده أكثر من أن تحصى ، ولأجل هذا خلص نقاد المسيحية إلى الآتي:

إن عامة اعتقادات الناس يمكن تصورها ، إلا اعتقاد النصارى، وذلك لأنهم لم يتصوروا ما قالوه ،وأن مجرد تصور عقيدتهم كاف للدلالة على بطلانها ، لأنه غير معقول ،ليس هذا فحسب بل هم تكلموا بجهل، وجمعوا في كلامهم بين النقيضين.

وعندما جوبه النصارى بغموض أصول اعتقادهم وتناقضها وعدم معقوليته وأستحالة فهمها وإدراكها ، أعتذروا بأنها سر من الأسرار،ظناً منهم أن في عذرهم هذا الغلبة والانتصار ،ومقرين في الوقت نفسه لخصومهم بأنها طلاسم وألغاز غامضة لا يمكن للعقل البشري القاصر الكشف عنها.

فكيف يمكن للعقل ان يستوعب كون المسيح متناهياً ولا متناهياً في وقت واحد، وآله كامل وإنسان كامل في آن معاً ، أو كيف يعقل أن الله أرسل أبنه الوحيد الذي هو في الوقت ذاته هو نفسه شخصياً ، أو فيه طبيعتين ألهية وبشرية معاً ،وكلها مما تحكم البداهة العقلية باستحالتها وبطلانها، ناهيك من أنها جمع بين المتناقضات التي لا يتسع لها عقل سليم.

ونتيجة طبيعة لتناقض المعتقد التأليهي لبديهيات العقل، أنتهى أحد ملوك الهند إلى القول:

" أما النصارى فإن أعداءهم يجاهدونهم بالشرع ،فأن أرى جهادهم بالعقل ، وأن كنا لا نرى قتال أحد ،لكني استثنى هؤلاء القوم من جميع العالم."

وعلق ابن قيم الجوزية على هذا الحكم قائلاً:

" لأنهم قصدوا مضادة العقل وناصبوه العداوة وشدوا عن جميع مصالح العالم الشرعية والعقلية الواضحة ، وأعتقدوا كل مستحيل ممكناً،وبنوا على ذلك شرعاً لا يؤدي إلى صلاح نوع من أنواع العالم ، ولكنه يصّير العاقل أخرق ،والرشيد سفيهاً ،والحسن قبيحاً ،والقبيح حسناً ، فلو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم الا لعموم أضرارهم التي لا تحصى وجوباً ،كما يجب قتل الحيوان المؤذى بطبعه لكونه أهلاً لذلك."

إن ما سبق ذكره عن تناقض معتقد التأليهين وحربه لكل معقول ، واستحالة تفسيره بالمنطق الهادي،وفوق ذلك كله غموضه الذي يستحيل صياغته بأي لغة من لغات البشر، هو الذي دفع بأحد النصارى أنفسهم للقول:

" إن المسيحية الحالية ،ووفقاً لتأريخها المكتوب في الوثائق المتداولة تمثل أحدى آفات البشرية الكبرى التي يتعين محاربتها بفاعلية."

وقد أجمل ابن حزم عدم معقولية اعتقادات النصارى وتناقضها في قوله:

" وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم عقلاً يسع هذا الجنون ، ونعوذ بالله من الخذلان.

وقوله:

"فهذه أقوال إذا تأملها ذو عقل سليم علم أنهاوساوس أو جنون ملقى من الشيطان لا يمتحن به الا مخذول مشهود ببراءة الله تعالى منه"

ومقصوده أن اعتقادات النصارى كما عرفها هو وغيره من المحالات والممتنعات التي يحكم العقل السليم ببطلانها ،ولا يصدقها أو يؤمن بها الا من ابتلاه الله خزياً وخذلاناً له بعقل لا يفرق بين الحسن من القبيح، والحق من الباطل ،والصدق من الكذب.

وبمجئ الإسلام رسخت عقيدة التثليث عندهم وحلت محل شهادة الا اله الا الله ، فنهاهم الله تعالى عن النطق بها سراً وجهراً ،فقال منادياً عليهم نداء فيه تنبيه وتوجيه للصواب وتهييج وأثارة للاستماع (النساء:171):

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

فالآية الكريمة بدأت بالموعظة الحسنة ،ناهية لهم عن المبالغة في تعظيم عيسى عليه السلام مبالغة رفعته إلى منزلة البنوة لله. ثم بينت حقيقته البشرية بأنه كلمته تعالى وضعها في رحم مريم عليها السلام، وهو قوله كن ،وليس هو الكن ولكنه بالكن كان، وليس الكن مخلوقاً ، ومعنى كونه روحاً منه ، أن روحه من الأرواح التي بها عناصر الحياة،ونسبت إلى الله لأنها وصلت إلى مريم بدون أن تكون نطفة ،وبها تفرد عيسى وأمتاز على غيره من بقية الأرواح المكونة للحياة .

ثم صنعهم الحق عز وجل وبما يشبه التحريم القاطع من التلفظ بعبارة الأب والابن والروح القدس كإقرار وشهادة منهم على اعتقادهم بتأليه ثلاثة آلهة هو أحدهم أو تريدها على ألسنتهم ،لأنهم في كلتا الحالتين قد بلغوا أقصى ما يمكن بلوغه في البعد عن الحق، والأنصراف عن الحقيقة.

أما عن اعتقادهم الجازم بالتثليث والمعبر عنه بذلك النطق ،فقد حكم عليه تعالى بالكفر البواح ، أي كفر صريح بوحدانية الله واحديته، فقال تعالى (المائدة:15):

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾

والمقصود ان الحكم ينطبق على كل من يعتقد ان الله مجموع ثلاثة أشياء ، أي هو واحد من تلك التي سموها بالأقانيم الثلاثة ،ثم عقب الله على ذلك الحكم قائلاً (المائدة:73):

﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾

وعبارة اله واحد مستوعبة وحاصرة الألوهية في واحد على وجه النقييد والاحاطة ،وبالتالي يبطل التثليث وينتفى تماماً.

إن كفر كل قائل بالتثليث ليس هو كفر جحود بالله أو إنكار لوجوده ،أو اسماءه الحسنى وصفاته العليا،بل نتيجة لاقرارهم وأعترافهم بثلاثة شخصيات أو ذوات منفصلة عن بعضها تارة ، ومتحدة تارة اخرى، ومشتركة جميعها في الإلوهية والتأله ولكنها

مجتمعة أو متفرقة يستحيل ان تكون ألهاً واحداً ، ومن هنا فإن كفرهم يتجاوز بمراحل كثيرة كل انواع الكفر المعروفة في اعتقادات الناس.

فإذا كان ذلك الحكم عام وشامل في كل من يعتقد ويقول بالتثليث ،فإنه يمتد وبنفس القدر ليلحق بالقائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح ،فقال تعالى في حقهم (المائدة:17)

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾

يعني أن من يعتقد حقيقة ان الله تعالى هو المسيح لا غير ، مبالغة منه في الحلول والاتحاد، أو ان حقيقة الله متحدة بحقيقة المسيح وممتزجة بذاته، اتحاد وامتزاج الاسمين للمسمى الواحد، فهو بالضرورة يحل محل الجاحد للخالق ،والمنكر لوجوده.

وأرجا الله تعالى رد عيسى عليه السلام على مؤلهييه هو وأمه إلى يوم القيامة، عندها يخاطبه الله قائلاً (المائدةد:116):

﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾

وأريد بالاستفهام في الخطاب اعلان كذب من كفر من النصارى ،وفي الوقت نفسه استفهام لعيسى عليه السلام ،ولكن المقصود به من اعتقد بألوهيته والوهية أمه ، لأنه في حالة تبرأه وتنصله منها، يتوجه الخطاب إلى من ابتدعوا واخترعوا هذا القول الشنيع ،فيعلموا أنهم المقصودين وحدهم، ،والمراد:

- إذا لم يكن عيسى هو القائل ،فلا عذر إذن لمن قاله وأعتقده خاصة وأنهم يتعبدون بكلامه، ويتبعون تعاليمه.

وجاء رد عيسى عليه السلام على طلب الله قاطعاً ، مستفتحاً بتنزيه الله تعالى عن ذلك الكلام ، قبل تبرئة نفسه ، فقال (المائد:116 - 118):

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

أما ادعاهم على الله تعالى بامتلاك الصاحبة والولد ، واعتقادهم في بنوة عيسى عليه السلام لله ،ففيه اهانة بالغة لله ، واستهزاءً واستخفافاً بمقام الإلوهية ، وغلط فاحش لا يليق بذاته العلية ، فقال تعالى منزهاً نفسه عن تلك الدعوى القبيحة (الانعام:101):

﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ...﴾

وأنى في الآية بمعنى من أين وكيف ، لتنزل هنا منزلة ايطال الدعوى وذلك من ناحيتين:

الأولى: أن الولادة لا تكون الا بين زوجين من جنس واحد، وهو يتعالى عن الشبيه والمجانس،فلا يصح ان تكون له زوجة ، وبالتالي لا تصح الولادة في حقه.

والثانية : أن الولادة من صفات المخلوقات ،وخالق المخلوقات لا يكون مخلوقاً حتى يكون له ولداً.

ثم قال تعالى مؤكداً وفي اكثر من آية على بطلان اتخاذ الزوجة والولد وكذبها (النساء:171):

﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ...﴾

وقال (المؤمنون:91):

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ...﴾.

وقال (مريم:35):

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ...﴾

وقال (الفرقان: 2)

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ...﴾

والآيات في مجملها تفيد تنزيه الله تعالى ان يكون له ولدا وفي الوقت نفسه تظهر غلط وخطأ وسوء فهم لكل من يدعى أن لله ولداً ، لأن الألوهية تنفي عن الله نفياً مطلقاً صفة الأبوة واتخاذ الولد.

ولأجل ذلك أوجب الله على عباده ان يخصصوه وحده بالثناء مرة بعد مرة ، وبلا توقف أو انقطاع لعدم اتخاذه للولد، فهو اعظم مستحق له ، فقال تعالى(الاسراء: 111) :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...﴾

وحكم الله تعالى على كل أدعاء بنسبة الولد إليه بالكذب الصريح والاختلاقالبين، فقال تعالى مخوفاً لكل قائل به (الكهف:4-5):

﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا*مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ .

وذلك لأن كل ما تنطق به ألسنتهم ،ولا تحقق له في الواقع هو الكذب بعينه، بل ليس في قولهم ذلك الا الكذب المحض،أو بمعنى أخر ليست له صفة يوصف بها الا صفة الكذب.

ولا يقف التلفظ بذلك القول في حدود الكذب، بل قد يبلغ في فداحته وشناعته وصعوبة تقبله حداً توشك ان تختل وتتداعى له قوانين الكون وسنن الطبيعة ،فقال تعالى (مريم 88 – 92):

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا*أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا *وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾

اما التثليثيون النصارى فقد بلغوا في أدعاءهم ان المسيح ابن الله في الكفر غايته ومنتهاه، حتى تساووا بالمشركين فقال تعالى حاكياً عنهم(التوبة :30):

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

والمراد بأفواههم أنه قول لا يتجاوز دائرة الوجود اللساني ،وليس له تحقق في الواقع الخارجي.

لاجل هذا انزلت السنة المحمدية أقوال النصارى التي رواها الله تعالى في القرآن منزلة السب والشتم لذاته العلية.

فروى البخاري عن الرسول ﷺ قوله عند تفسير قوله تعالى ،وقالو اتخذ الله ولدا(حديث رقم 4482):

" قال الله كذبني ابن ادم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فإما تكذيبه أياي فزعم اني لا أقدر ان أعيده كما كان ، وأما شتمه اياي فقوله لي ولد ، سبحاني ان اتخذ صاحبة أو ولدا...

خلاصة القول إذن ان التأليهيين وكما يرى ابن قيم الجوزية وقعوا في محذورين عظيمين كلاهما بمثابة سب وشتم لله تعالى،سباً وشتماً ليس لأحد من الخلق سابق عهد بهما ،ولا يرضى به ذو عقل سليم وهما:

إحدهما : الغلو في المخلوق ، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه، وألهاً أخر معه، وأنفوا ان يكون عبداً لله.

والثاني: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم ، حيث زعموا أنه نزل من كرسي عظمته ،ودخل في فرج إمرأة وأقام هناك تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو، وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل ،رضيعاً صغيراً يمص الثدي ولف في القمط ،وأودع السرير يبكي ويجوع ويعطش ويبول ويتقوض،ويحمل على الأيدي.

ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه وربطوا يديه وبصقوا في وجهه وصفعوا قفاه وصلبوه جهراً بين لصين، وألبسوه أكليلاً من الشوك وسمروا يديه ورجليه وجرعوه أعظم الآلام ، هذا هو الآله الحق الذي بيده أتقنت العوالم ،وهو المعبود المسجود له.

الفصل الثاني
العداوة والبغضاء

لم يطلق عيسى عليه السلام – وكما بينا من قبل – على الجماعة التي آمنت ببشارته وتبعته ، أو تلك التي أزرته في التبشير وناصرته عليه أي اسم يميزهم عن غيرهم ويفصلهم عن سواهم ،وذلك لأسباب تعود إلى طبيعة رسالته من جهة ،وإلى كونه مبعوث إلى خاصة قومه من جهة أخرى. فظل خلال أعوام نبوته الثلاثة حريصاً على الانتساب إلى الشريعة الموسوية، دون أن يقترن ذلك الانتساب بأي اسم معين من الاسماء التي تطلق عادة على الدين والعقيدة.

ولما أحس الحواريون من بعده بأنفصالهم عن غيرهم من اتباع الدين الموسوي ،واستغلالهم بأنفسهم كجماعة ذات تنظيم تأسست لأجل هدف محدد وغاية معلومة ، آثروا الانتساب إلى المدينة أو القرية التي كانت مسقط راس مريم عليها السلام.

وبالنسبة التي اختاروها هم لأنفسهم ، والاسم الذي أرتضوه وآثروا أطلاقه على دينهم ،حكى الله تعالى عنهم قائلاً(المائدة:14):

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ...﴾

والمعنى المستفاد يؤكد وكما بينا من قبل ان هدف رسالة عيسى عليه السلام وغاية نبوته هي الإعلان بقرب ظهور الإسلام ومبعث النبي الخاتم، وحرص هو من جانبه على إفهام حواريه واتباعه بضرورة وجوب تصديقه والايمان به، والعمل على نصرته ونصرة دينه، سواء في حياته أو بعد مماته ،وأتخذ اعلانه ،والإقرار من جانبهم صورة العقد المؤكد بيمين وعهد أي ميثاق.

ومجمل الآية يفيد أنه لو حصل ظهور الاسلام ونبيه في زمن من الأزمنة في حياته عليه السلام أو بعد مماته ،فيجب عليهم ،عملاً بمقتضى ذلك العهد الموثق الايمان به واتباعه ،فحقيقة العهد اذن تتوقف على اتفاق اجتماع الاسلام ونبيه واتباع عيسى عليه السلام في عصر واحد ووقت واحد ، فلو حدت ذلك لكان لزاماً عليهم الايمان به ،والعمل على نصرته ونصرة دينه.

بيد ان النصارى اغفلوا ميثاقهم مع الله ،واهملوا عهدهم مع نبيهم،وتركوا العمل به ، فحكى الله عنهم قائلاً (المائدة:14):

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾.

وليس نسيانهم عن غيبة أو زوال ما التزموا يه عن قواهم المدركة ، بحيث يحتاج من جديد لإعادته مرة اخرى إلى الذاكرة ،بل عن قصد وإرادة وتصميم حتى يسقط وينمحي تماماً من عقولهم ،فلا يعود للذاكرة مرة أخرى ،وهذا مالا عذر لهم فيه ابداً.

فمن المعروف أن النصارى عمدوا إلى محو وتحريف أي ذكر للإسلام ورسوله من الكتابات المعتمدة عندهم والتي تحمل اسم الانجيل كعنوان رئيسي لها ،وإلى تأويل ما عجزوا عن تحريفه وأسقاطه .وحين اعياهم التأويل لجأوا إلى تأويل التأويل حتى ينصرف كل ماله صلة بها إلى غيرهما.

ولا غرض يرمي إليه النصارى من وراء محاولاتهم الدائمة والدؤوبة لطمس معالم البشارة بالإسلام ونبيه سوى القضاء المبرم على روح الرسالة العيسوية ،فهي وحدها المتغلغلة في نسيجها العام وعلى نحو لا يمكن نزعه منها، فإذا أقتلعت فقدت الرسالة تكاملها وانسجامها وغاية ما انزلت اليه ، ولأجل هذا حكم الله عليهم حكماً يظل ملازماً لهم وثابتاً في حقهم إلى آخر الزمان ،فقال عز وجل(المائدة:14):

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾.

والمعنى الإجمالي للآية أن علاقة النصارى مع بعضهم البعض ،وفي جوانبها المتعددة ،وفي مختلف أنواعها واشكالها الحياتية ،بل أساس التعامل ومحور الارتباط فيما بينهم تسوده العداوة ، وتهيمن عليه البغضاء ،حتى غدا تسلط واقتدار كل فئة على الاخرى هو الغالب على تعاملهم املهم ، ووعنصراً فاعلاً يميزهم عن غيرهم من الناس.

ولاجل ذلك استخدم القرآن الكريم في تفصيله الدقيق لذلك المعنى عبارة (اغربينا) ،الدالة على التحريض والتهييج المتواصلين، والتسليط والتحريش المستمرين إلى ما لا نهاية ،وذلك لأن حقيقة الاغراء هي حض وحث دائمين على فعل محدد وتزيينه وتحسينه لفاعله ، حتى لا يتردد لحظة ولا يتوان او يتقاعس ابداً على الاتيان به.

والتعبير بالأغراء وحده مرده إلى ان تظل كل من العداوة والبغضاء حية في نفوسهم وشديدة التأثير عليهم، وفي الوقت نفسه متلازمين تلازم الصفة لموصوفها ، ومتلاصقين كأن كل منهما شدت إلى الاخرى بقوة وأحكام ،مع دوامها بلا توقف ولا انقطاع .

أما العداوة والبغضاء فما اسمان يطلقان على الكراهية الشديدة ،ويضادان المحبة والرضا، ولكنهما من حيث المعنى انفعالان نفسيان يشتد تأثيرهما على القلب فينحو كل منهما على حدة منحى مضاد ومباين للآخر.

فالعداوة هي كراهية تبلغ في قوتها وشدتها الانفعالية حداً تتجاوز فيه مداها الطبيعي والمقدر لها الانتهاء والوقوف عنده، فتدفع بهم إلى الضرر وايقاع الاذى بالآخرين ،فإذا وقع الأذى وحدث الضرر، فتصبح عندئذ أخلالاً وتجازاً لحدود العدالة الواجب توفرها في العلاقات بين الجميع ،فتأخذ حينئذ اسم العدوان كمظهر خارجي لها.

أما البغضاء فهي شدة الكراهية أو أشد الكراهية ،فيحدث عنها نفور في نفوسهم تجاه غيرهم أو بعضهم لبعض ،وهي عكس العداوة ليست مصحوبة ولا مقترنة بأي تجاوز أو إخلال بالعدالة ،وذلك لأنها انفعال نفسي مضمر ومتوار بعيداً في الاعماق ،ولا أثر له في الظاهر.

ومن هنا ظل عنف النصارى وقسوتهم فيما بينهم شكل من أبرز اشكال العدوان الذي لا يهدف الا لإلحاق الاذى البدني والمعنوي بالآخرين، وبالتالي فهو المظهر الطبيعي للعداوة والمعاداة ،فيقف كل منهم مفارقاً للآخرين ومبياناً لهم، وقلبه مملوء بإرادة الشر والفساد لهم، والهدم والتخريب لمقنتياتهم المادية.

وعند توفر قدراً معتبراً من الوئام والاجتماع فيما بينهم تهمد حرارة العداوة ويقل توهجها ،فتزول مظاهر العدوان ،أو على الأقل تخف حدته إلى ادنى معدلاته ،ولكن شدة الكراهية تظل على حالتها الأولى ،باقية في النفوس ،وكامنة في القلوب ،ليس فقط كأول

مرتبة من مراتب العدوان،بل ايضاً كانفعال متأصل ومتجذر في نفوسهم وقلوبهم ،ويتجلى في مظاهره المتنوعة كنفورهم وتفرقهم وأعراضهم بعضهم عن بعض.

وكما قلنا من قبل فإن العداوة والبغضاء بمظاهرها الكثيرة والمتنوعة هي عقوبة لازمة لهم ،وجزاء ثابت ودائم فيهم، كحق لله تعالى واجب الاستيفاء ،جراء نكثهم للعهد ونسيانهم الميثاق ،فيعانوا في مقابلة الشئ الكثير مما يصعب ويشق عليهم تحمله من ألاوجاع القاسية والآلام ثقيلة الوطء على القلوب ،ما بقوا على قيد الحياة ولفترة تمتد إلى يوم البعث والنشور.

هذا كله من الناحية النظرية ، أما من الناحية الواقعية فإنه من الثابت تاريخياً ان البشرية لم تشهد قط في مسيرتها الطويلة في الحياة أمة يجمع بينهم دين واحد ، وتوحدهم مرجعية واحدة ،نشبت الخلافات والصراعات بينهم مثل النصارى ، ووصلت الخلافات والصراعات بينهم وفي احيان كثيرة إلى حد الاقتتال في ميادبن الحرب.

ليس هذا فحسب ، بل لا يوجد على الإطلاق دين من أديان الانسانية تنازع أهله في اصوله الاعتقادية وتخاصموا حولها مثل النصارى ،ويكاد الخلاف ينحصر برمته في موضوع واحد هو شخصية المسيح عليه السلام، ومنه تفرعت الآراء والاجتهادات وتشعبت عل نحو لم يسبق له مثيل ،وأدى ذلك كله إلى تمزيق الجماعة شيعاً وأحزاباً كل منها يناصب الآخر العداوة والبغضاء.

ففي القرون الثلاثة التي سبقت انعقاد مجمع نيقيه كان النقاش بين التأليهيين يدور حول ماهو المسيح ،هل انسان أم اله ،و بمعنى أكثر تحديداً:

حقيقة لاهوت المسح وناسوته

فقد كان هناك تيار قوي يعتقد في لاهوت المسيح وحده مجرداً عن المادة ،لان الذي نزل من السماء هو روح ،أما الجسد الذي حل فيه فهو مجرد مظهر له ، في حين وقف على النقيض من هؤلاء ،من يعتقد بانسانية عيسى المجردة عن كل تأليه.

ثم نحى الخلاف منحى آخر عندما سعت طوائف منهم للتأكيد على أن المسيح ليس ألهاً وفي الوقت نفسه ليس إنساناً ،بل هو ابن الله، اي هو الكلمة المتجسدة ،وذلك استناداً على أن الإنسان مكون من روح ونفس وجسد ،وبما ان المسيح مجرد عن الروح البشرية تماماً وعلى نحو يستحيل معه القول بأنه صار إنساناً ، فهو في حقيقة أمره الكلمة التي اصبحت جسداً ،وليس إنساناً.

وهؤلاء يستندون على أن الكلمة أو ابن الله الأزلي قد اتخذ بنفسه من الجسد جسداً بلا روح بشرية عاقلة، وبأتخاذه هذا الجسد حل محل الروح البشرية العاقلة ، وعلى هذا فالمسيح بلا روح بشرية عاقلة لأن الكلمة تؤدي هذه الوظيفة في المسيح.

وإزاء مقولة الكلمة صار جسداً تفجرت مشاكل جديدة لم تكن في الحسبان ،واثيرت اسئلة وجهت لمن يعتقد في الكلمة ذلك الاعتقاد مثل:

ماهو الكلمة ،هل هو الله ، أو جزء منه، أو شبيه به، وهل الكلمة ابن الله منذ الأزل ،أم وجد مع وجود الخلق ،ام سبقتهم في الخلق والايجاد،وهل الكلمة من جوهر الابن ام

من جوهر أخر ،وإذا كان الكلمة ابن الله ،فهل هو ابن الله بالطبيعة أم بالتبني ،وماهي علاقة الاب بالابن ،ومن الأصل ومن الفرع، ومن هو السابق ومن هو االلاحق ، وهل هذه الكلمة حلت في جسد بدون روح بشرية أم في انسان مجرد يدعى يسوع المسيح.

على ان المشكلة التي عمقت من هوة الخلاف بين النصارى ورفعت من حدة النقاشات خلال هذه الحقبة ،دارت في معظمها حول روح بشرية في المسيح ، أو إذا شئنا وضع القضية في إطارها الجدلي:

- هل الكلمة هي ابن الله في جسد بدون روح بشرية ، ام ان الكلمة أبن الله حل عند التجسد في إنسان كامل التكوين من روح بشرية وجسد،

وانتهى النقاش وعلى نحو فيه تشدد واضح عند اغلب اباء الجماعة المسيحية إلى وجود روح بشرية في المسيح ،لاعتقادهم ان الكلمة في المسيح مثل الروح في الإنسان . ومن ثم يعني موت المسيح انفصال روحه عن جسده ،بل انفصال الكلمة عن الجسد.

ولكن هناك من وقف حائراً ومتردداً متوخياً الحذر معارضاً ومنكراً ،ولم تتضح معالم الافتراق بين النصارى ،ولا خطر الانقسام الذي أدت إليه إلا بعد قرارات مجمع نيقيه.

ففي مجمع نيقيه تقرر وكما رأينا مساواة الأب والابن في الجوهر ،مع الاعتراف بأزلية الاب المساوية ،أما الصيغة التي اثبتت ووثقت بها فهي:

- ابن الله المتجسد للأب في الذات والجوهر، قاطعين بهذا الطريق في أي نقاش أو خلاف حول مشكلة وجود اللاهوت والناسوت ، أو حقيقة لاهوت المسيح وناسوته.

وقد أدى حسم المشكلة بطبيعة الحال وبشكل نهائي إلى انتقال الخلاف العقائدي حول شخص المسيح إلى مشكلة أخرى أبعد غوراً من المشكلة السابقة ،وهي:

- كيفية اتحاد الطبيعيتين اللاهوتية والناسوتية في المسيح،عندئذ قفزت إلى الوجود مشكلة أخطر بكثير من سابقتها وهي:
- مشكلة الله الذي صار إنساناً ،والكلمة الذي صار جسداً ،وظلت مشكلة الاتحاد ،وكيف تم ،هي الشغل الشاغل للأباء والمفكرين ، حتى انعقاد مجمع فلقيدونية عام 451م ، يحاولون جاهدون الإجابة على اسئلة غاية في الصعوبة والتعقيد دون جدوى ،ودون اتفاق ، مثل:
- كيف يمكن أن يكون ابن الله وابن الإنسان في وقت واحد، وهل حلت الكلمة الأبدية في المسيح الإنسان ،هل في فترة زمنية من حياة هذا الإنسان رفعه بعدها إلى درجة اللاهوت ،وهل حل الكلمة في بطن مريم العذراء في اللحظة التي سمعت فيها بشارة الملاك، وهل يمكن القول بأن هذا الجنين الذي تكون في بطن مريم هو الله، وبناء عليه هل يجوز ان تحظى مريم بلقب أم الله.

وايا ما كان الأمر فقد كان هناك من يعتبر ان الاتحاد بين اللاهوت والناسوت في المسيح هو اتحاد أضافي بمعنى السكن والارتباط رافضاً أي أتجاه للقول بالاتحاد

الطبيعي والمزج بين الطبيعتين وذلك حفاظاً على كمال الطبيعة البشرية ، أي هناك تجريد للناسوت من خواص اللاهوت ،كالحضور في كل مكان ،والقدرة على كل شئ،وإنكار صريح للاهوت ،كالولادة والتألم والموت والأهواء الجسدية ،.

عندما ظهرت للوجود مشكلة أخرى متفرعة عن تلك نوقشت على النحو التالي:

- هل للمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتين متحدتين.

فمنهم من قال بالطبيعة الواحدة ، ومقصودة كمال طبيعة اللاهوت في المسيح، يعارضه تجاه يوافق من حيث المبدأ على كمال الطبيعة الألهية ، ولكنه يذهب إلى كمال الطبيعة البشرية ايضاً ،فهناك إذن طبيعتان متحدتان بلا امتزاج ولا اختلاط ، رافضين في الوقت نفسه أي اتحاد طبيعي أو جوهري بين الاثنين ،تجنباً من حصر اللاهوت ،أو تأليه الناسوت.

لأجل هذا اجتمعوا في أفسس عام 431م للرد على القائلين بفصل طبيعة المسيح الألهية عن طبيعته البشرية ،وأدانتهم فيما ذهبوا إليه ،مثبتين لمريم اللقب التي كانت معروفة به، وهو أم الله، تلاه مباشرة انعقاد مجمع خليقدونية عام 451م الذي ينص على أن:

للمسيح طبيعتين ،فهو اله من طبيعة ابيه ،وبشر من طبيعة أنه.

واعتبر كل من يعتقد بوحدة طبيعة المسيح في عداد الهراطقة ،ومن جراء هذا الحكم تعرض كل من يقول به للاضطهاد والحبس في السجون ،ولكن المشكلة ظلت ولمدة قرنين من الزمان تؤرق النصارى. وتزيد في دائرة الخلاف بينهم ، اجتمعوا خلالها في القسطنطينية عام 553م، وكان على راس جدول أهتماماتهم وضع حل يقطع دابر الخصام والنزاع ،الا ان الاجتماع انتهى إلى الإخفاق التام في التوفيق بين المتنازعين او بالخروج للناس بقرار يحسم أمر الجدل القائم بينهم.

ومهما يكن من أمر فقد أدت قرارات مجمع خلقيدونية إلى حدوث اكبر وأهم انشقاق بينهم ، إذ أصر أقباط مصر على اعتقادهم بوحدة طبيعة المسيح رافضين كل ما انتهى المجمع ،مما أدى إلى انعقاد المجمع الخامس في القسطنطينية عام 553م الذي خصص للرد على كل من يقول بالطبيعة الواحدة.

ولم يقبل الاقباط ومن يشاركهم القول بالطبيعة الواحدة قرارات المجمع وتلك الأحكام الجائرة في حقهم وحق معتقدهم ،فأعلنوا الانفصال عن سائر النصارى الآخرين المخالفين لهم في الاعتقاد. مما أدى إلى نشأة الكنيسة الأرثوذكسية القبطية ومركزها في الاسكندرية ، وتبعهم نصارى الحبشة وأرمينية في تاسيس كنائس جديدة في مناطقهم.

وفي خضم ذلك الخلاف والتنازع حول طبيعة المسيح عرض اسقف انطاكية حلاً توفيقياً للمشكلة مفاده القول :

- بطبيعتين في المسيح مع فعل واحد ، اي مشيئة واحدة.

وهو الراي الذي راى فيه البعض مخرجاً معقولاً من الازمة المستحكمة طويلة الأمد ، غير ان نقطة الضعف في الحل تكمن في عدم وجود أحد من الآباء قال بالمشيئتين ، لذا آثر البعض السكوت عن الكلام في المسألة طالما أن مشكلة الاتحاد قد حسمت منذ زمن بعيد، في حين أن هناك من أعترض اصلاً على القول بالمشيئة الواحدة ،وذهب إلى تحريم الكلام فيها.

ولأجل ذلك أدين وعذب وسجن وقتل كل من أصر على القول بها ، ومن فلت من السجن والقتل فقد فضل الفرار إلى البراري والصحاري،ولم يظهروا ثانية الا مع الفتوحات الإسلامية.

وفي سنة 639م صدر مرسوم عن أمبراطور الشرق أباح فيه القول بالمشيئة الواحدة، أما البابا في الغرب فقد حرم أي اعتقاد بالمشيئة الواحدة، هذا في الوقت الذي أكتملت فيه الفتوحات الإسلامية للشام وما جاورها ، وبأكتمالها انقطعت الصلة بين نصارى المنطقة وغيرهم، إيذاناً بفاتحة عالم جديد للنصارى في المشرق الإسلامي .

وعلى أي حال فإن القول بالمشيئة الواحدة وكما يرى آباء الكنيسة مردود لأنه يناقض كمال اللاهوت والناسوت في المسيح ، فالطبيعة لا يمكن أن تكون كاملة وهي ناقصة الإرادة والفعل.وباتحاد وبلا أنفصال ، ولم يرد المسيح ولم يفعل شيئاً من حيث هو إنسان فقط، بل من حيث هو آله وإنسان معاً بلا أختلاط ولا إنقسام.

وأخيراً تمخضت كثرة المناقشات وتعدد الآراء بين الفقهاء المتخاصمين على أمتداد أكثر من خمسة قرون عن قناعة بلغت عندهم حد اليقين ،وهي ان المعتقد حول الطبيعة المسيح غاية في الغموض والتناقض وعدم المعقولية ،ومن الأسلم للجميع السكوت عنه تماماً وعدم الخوض فيه، لا لشئ يتعلق به ، بل لكونه سراً من الأسرار التي خصموا بها دون العالمين ،وهو سر يظل على الدوام مما تتقاصر العقول والأفئدة عن سير أغواره.

ومن ثم رؤى أن العقيدة المسيحية الصحيحة قائمة على سرين من أعظم الأسرار التي عرفتها البشرية وهما:

- سر الثالوث الأقدس

- وسرالتجسد

غير ان سد باب الجدل نهائياً في وجه أي خلاف حول طبيعة المسيح ،لم يؤدي إلى سد باب الخلاف والتنازع ،بل أتخذ له مساراً أخراً ،ووجهة جديدة ، لا تقل في حدتها وعدوانيها عن منازعات وخلافات ما قبل التسليم بالحد الفاصل للعقيدة المسيحية الصحيحة.

وكان أول نزاع تفجر بعد ذلك يدور حول ما اصطلح عليه في العصور الوسطى بتقديس الصور ، اي صور المسيح وأمه ، ثم الحقوا بها صور الحواريين والقديسيين

وغيرهم ، الذي انتهي بعد صراع طويل أشبه بالحرب إلى تحريم نصارى الشرق لها ، في حين وقف الغربيون معارضين لهم ،من منطلق تعاليهم ،وأستناداً على مكانتهم السيادية.إيذاناً بنهاية في العلاقة بين الفريقين ،وفاتحة لحقبة جديدة من العداء والمنافسة أدت في خاتمتها إلى الإنشقاق الكبير الذي قسم النصارى إلى قسمين : إحدهما في الشرق اليوناني ،والآخر في الغرب اللاتيني.

أما سبب ذلك الإنشقاق فمرده إلى ظهور مشكلة جديدة طرأت على الثالوث الأقدس ،وطرحت للبحث والنقاش والمجادلة على النحو التالي:

- من أين انبثق الروح القدس، أمن الأب أم من الأبن.

فذهب نصارى الشرق اليوناني إلى ان الروح القدس انبثق عن الأب وحده ووافقهم النصارى في الغرب اللاتيني على ذلك، ولكنهم رأوا ضرورة إضافة عبارة (وعن الابن ايضاً) ، وأعترض الشرقيون بشدة لأعتقدهم أنها إضافة زائدة على ما أجمع عليه آباء الكنيسة السبعة الأولى ،هو من وجهة نظرهم عبث بالعقيدة واستهتار مقيت باجتهادات اباء الكنيسة العظام.

عندئذ أجتمع الأساقفة اللاتين في القسطنطينية وأصدروا حكم بلعن وطرد كل من لا يعترف بإنبثاق الروح القدس من الأب والأبن معاً ،وفيه حسمت بالنسبة إليهم ثلاث قضايا :

- أولها: انبثاق الروح القدس من الأب والأبن معاً

- ثانيها: الفصل في القضايا اللاهوتية المتعلقة بالمسيحية وعقائدها هو من مسئولية كنيسة روما وحدها.

- ثالثها: خضوع كافة المسيحيين لكل المراسيم والقرارات التي تصدر من البابا رئيس الكنيسة في روما.

وبديهي الا يسلم الشرقيون بتلك القررات وعلى الأخص بفكرة يرونها كفراً وهرطقة فكانت هي كما يقال القشة التي فصمت ظهر البعير ،وأدت إلى فصم عرى الارتباط الديني والعضوي بينهم ،واستقل كل منهما الأخر استقلالاً تاماً.

- فسميت الكنيسة اللاتينية بالكنيسة الكاثوليكية وبالكنيسة الغربية لاقتصار سلطانها على الغرب اللاتيني وحده.
- وسميت الكنيسة اليونانية بكنيسة الروم الارثوذكس ، أو الكنيسة الشرقية لقصور سلطانها على الشرق الناطق باللغة اليونانية.

ومما يدعو إلى الحيرة والإنبهار ،وكما رأينا أنهم يختلفون حول معاني غاية في الغموض والتعقيد الفلسفي،مثل تجسد الكلمة واحدى الجوهر ،وواحد في الذات والجوهر إلى غيرها مما سبق ذكره ،ثم الاستعانة في كثير من الأحيان بمقردات قد تحمل أكثر من

معنى ،ولها أكثر من دلالة ، لا يجيد استخدامها وفهمها والتعامل معها سوى العقلاء والعارفين منهم، فإذا سعى هؤلاء جاهدين إلى أفهامها وتفهيمها للعامة أو الوعظ بها من على منابر الخطابة ، تصبح حينذاك نوعاً من أنواع العبث المرذول.

ولعل كل ما مضى ذكره كاف وحده لأن يفترق أتباع عيسى عليه السلام في القرون الأولى من ظهوره إلى عدد من الفرق يفوق الحصر ،ويدعو إلى التعجب ، فعلى سبيل المثال استطاع الأب أيرانيوس أن يحصي في عام 187م عشرين شيعة مختلفة من النصارى ،وأحصى الأب ايفانيوس في عام 384م ثمانين فرقة وظائفة ، كل منها مستقلة عن الأخرى في العقيدة والعبادة وكل منها تعادى الأخرى عداوة قد تصل في أحيان كثيرة حد التجريح والإيذاء.

وكان أحد آباء الكنيسة يقول ساخراً:

"أن المسيحيين تفرقوا شيعاً كثيرة حتى اصبح كل فرد منهم أن يكوّن لنفسه حزباً" .

ولخص أحد الكتاب راي المؤرخ جوليان بقوله:

"... ذلك انه رأى فيهم التشتت اللاهوتي ،والحقد العظيم بعضهم لبعض ، والذي يصل إلى سفك الدماء والتحريض على قتل ابناء عمومتهم."

لأجل ذلك كله كان النصارى يتداعون بين الوقت والآخر إلى أجتماع عام أو خاص يحضره كبار الآباء وقادة الطوائف الدينية لحسم الخلافات المستحكمة بينهم،والنظر في اسباب وعوامل العداوة والبغضاء المتفشية بينهم ، والعمل معاً للوحدة واللألتئام بدلاً من الاستمرار في الفرقة والتناحر والأنقسام، وهي التي عرفت فيما بعد باسم المجامع الكنسية.

ولكن ما أن يتلاقوا ويضمهم مكان واحد وقاعة واحدة حتى يدب الخلاف بينهم من جديد ،ولاتقبل أي جماعة أو طائفة على التنازل عن معتقداتها وآراءها للأخرى بأي حال من الأحوال ، ويشتد الجدل وتحتدم المناقشات وتعلو الأصوات ،ولا يتفقون على شئ ،ثم يتفرقون وهم اشد تباعداً ومقتاً وقطيعة مما كانوا عليه.

فلو القينا نظرة متأنية على المجامع التي عقدت ما بين أول مجمع عقد في نيقيه عام 325م ، انتهاءاً بآخر مجمع عقد في روما عام 1869م لتبين لنا بوضوح أن العداوة والبغضاء ضاربة بجذورها في نفوس القوم بعضهم لبعض ،فلا أحد منهم يسلم من الآخر ،تارة باللعن ،وتارة بالطرد والإبعاد عن الجماعة ، حتى كانت السمة الغالبة عليها والمميزة لها هي دورانها على المشاحنة والخصام.

يصف ابن القيم الجوزية حال النصارى داخل تلك المجامع بقوله:

" وقد أشتملت هذه المجامع العشرة المشهورة على زهاء أربعة عشر ألفاً من الأساقفة البتاركة والرهبان كلهم بكفر بعضهم بعضاً ،ويلعن بعضهم بعضاً ،فدينهم إنما قام على اللعنة بشهادة بعضهم على بعض ،وكل منهم لاعن ملعون.

فإذا كانت هذه حال المتقدمين مع قرب زمنهم من ايام المسيح وبقاء اخباره والدولة دولتهم ،والكلمة لهم، وعلماءهم إذ ذاك أوفر ما كانوا واحتفالهم بأمر دينهم واهتمامهم به كما ترى فكيف بحال المتأخرين.

ثم هم مع ذلك تائهون حائرون بين لاعن وملعون، لا يثبت لهم قدم ،ولا يتحصل لهم قول في معرفة معبودهم ،بل كل منهم قد اتخذ ألهة هواءه " وباح باللعن والبراءة ممن اتبع سواه"

ولم يجد المؤرخون الذين تتبعوا تاريخ النصارى الديني والعقدي ،وصفاً يعبر عما يمور في دواخلهم من قسوة وعنف، وتضطرب به نفوسهم من حقد ورغبة في الإيذاء على غيرهم من ابناء ملتهم غير كلمة الاضطهاد ،فاطلقوها علماً نصبوه على عدوانهم وبغضهم بعضهم لبعض ،وذلك تتضمنه لما الكلمة وتشتمل عليه من معاني القهر والظلم والأذى والقسر والإكراه ،وتلك بلا شك من أكثر المظاهر شيوعاً وأنتشاراً بينهم، فعدت لغرابتها وشذوذها علماً عليهم وحدهم.

إذ كانت كل فرقة أو جماعة منهم تخفق في إقناع الآخرين بصوابهم واستقامتهم على الحق،وخطأهم هم وانحرافهم ،يحكمون عليهم بالهرطقة (الابتداع في الدين)،فإذا كانت بأيديهم قوة وسلطة ،ساعتها لايتورعون عن إكراه الآخرين بالتسليم لهم بكل ما يرونه، والا أنزلوا بهم اشد أنواع التعذيب قسوة وبشاعة ،كنوع من أنواع العقوبة والجزاء لمخالفتهم لهم في الرأي والمذهب.

وبلغ أضطهاد النصارى بعضهم لبعض ذروته ومنتهاه في محاكم التفتيش التي انبعثت فكرتها من إتساع رقعة الخلاف وحدة المنازعات العقدية فيما بينهم. فمن المعروف أن الحقبة التي سبقت صدور المرسوم بتشكيلها قد حفلت بصور وأشكال شتى من الابتداع والهرطقة والخروج الصارخ على معتقدات الكنيسة الكاثوليكية.

ولما تبوأ البابا جريجوري كرسي البابوية عام 1227م وجد الهرطقة والهراطقة آخذة في التوسع والأزدياد رغم العقوبات بالغة الشدة التي أنزلت بهم ،فقد كانت جميع بلاد البلقان والجزء لأكبر من إيطاليا وأجزاء من فرنسا مرتعاً خصباً للضلال والإبتداع في الدين ،وبالتالي أضحت الكنيسة الكاثوليكية يتهددها خطر التفكك والإنقسام.

وعندئذ شكل البابا لجنة برئاسة أحد الرهبان عقدت جلساتها في مدينة فلورنسا للتحقيق مع أولئك الضالين وتقديمهم للمحاكمة ،وكانت هذه اللجنة هي البداية الفعلية لمحاكم التفتيش البابوية،وفي عام 1231م أدخل على القانون الكنسي الشرائع التي سنها الملك فردريك الثاني عام 1224م لتشكل بموجبه محكمة للتحقيق مع المبتدعين تحت

السلطان المباشر للبابوات ،مع خضوع المحققين والمفتشين من الوجهة الرسمية لسلطان الأسقف المحلي.

إذن فقد استندت محاكم التفتيش في تنظيمها ولوائحها الداخلية على القانون الذي سنه الملك فردريك الثاني والقاضي بالآتي:

" يسلم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة إلى اليد الزمنية (أي ولاة الأمر المحليين) ،وان يحرقوا أحياء ،فإذا رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة،وتصادر جميع أملاكهم ويحرم ورثتهم من ميراثهم ،ويظل أبناؤهم محرومين من حق الاختيار لدى أي منصب ذي دخل أو كرامة ، اللهم إذا كفروا عن ذنب آباءهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين ، أما بيوتهم ومحل سكناهم فتحرق والا يعاد بناؤها أبداً.

أما دائرة أختصاص محكمة التفتيش فقد حدد صلاحيتها المرسوم البابوي الآتي نصه:

" نعلن بهذا حرمان جميع الضالين وتصب عليهم اللعنة الكاثار والبشارين ورجال ليون الفقراء ،وكل من عداهم أياً كان الاسم الذي يسمون به، فإذا أدانتهم الكنيسة وجب تسليمهم للقاضي الزمني ، وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله وأراد أن يكفر عن ذنبه وجب سجنه مدى الحياة.

وكل من يأوى الضالين أو يحميهم أو يساعدهم يحرم من الدين ،وإذا بقى إنسان محروماً عاماً كاملاً ويوماً حرم من حماية القانون ،وإذا لم يستطع المتهمون بالضلال أن يثبتوا براءتهم طردوا من حظيرة الدين ،فاذا بقوا محرومين عاماً كملاً حكم عليهم بما يحكم على الضالين.

وليس لهؤلاء حق أستثناء من الحكم ،وكل من يمنحهم دفنة مسيحية يحكم عليهم بالحرمان ويظل كذلك حتى يعمل ما يستوجب الرضا عنه ،فلا يغفر له ذنبه حتى يخرج بيده جثث المحرومين ويطرحها في العراء.

ونحن نحرم على غير رجال الدين جميعهم أن يتناقشوا في مسائل الدين الكاثوليكي ،ومن يفعل ذلك يحرم من الدين.

وعلى كل من يعرف أحداً من الضالين ،أو ممن يعقدون اجتماعات سرية، أو ممن لا يؤمنون بعقائد الدين القديم ايا كانت ، أن يبلغ ذلك إلى من يقضى به إليه باعترافه ،إو إلى شخص أخر يبلغه إلى الاسقف أو المحقق ،فإذا لم يفعل هذا حرم من الدين.

والضالون وكل من يأوونهم أو يؤيدونهم أو يساعدونهم وكذلك ابناءهم حتى الجيل الثاني،وهؤلاء كلهم لا يسمح لهم بتولي المناصب الكنسية ،وها نحن أولا، نحرمهم جميعاً هم وأمثالهم من دخلهم إل أبد الدهر."

أما الصورة الأكثر شيوعاً للتحقيق مع المقبوض عليهم فكانت تجري على النحو التالي:

يقبض في البداية على جميع الضالين ،وعلى المشتبه بهم في ضلالهم أحياناً ، والذين يقرون بضلالهم خلال المهلة القانوينة الأولى ومدتها ثلاثون يوماً ،ثم يتوبون يطلق سراحهم بعد حبسهم لفترة قصيرة ، أو بعد القيام بعمل من أعمال البر والتقوى.

ومن لا يعترف من الضالين بجريمته أثناء هذه المدة ثم يكشف امرهم في التحقيق المبدئي ، أو تدل عليهم عيون المحكمة يكشف عنهم بأي طريقة أخرى، فهؤلاء جميعاً يدعون إلى لمثول أمام محكمة التفتيش.

لم يكن التعذيب بقصد انتزاع اعتراف الضالين معمولاً به في العشرين سنة الأولى من سنين محاكم التفتيش إلى أن أجازه البابا أنوسنت الرابع عام 1252م ،في حالة وثوق القضاة من ذنب المتهم ،ونصح البابا في رسائله التوضيحية أن يكون التعذيب هو آخر ما يلجأ إليه مع المتهمين ،والا يلجأ إليه الا مرة واحدة ،والا يصل حداً يفقد فيه عضواً من أعضاءه أو الموت .

أما انواع التعذيب وطرقه على إكراه المتهمين للاعتراف فيصعب احصاؤها ، ولا يكاد يوجد لها مثيل في تاريخ البشرية قسوة وبشاعة وشدة وقعها على النفس والبدن.

فمنها ما كان يتم بأدوات قليلة ولكنها قوية التأثير على المتهم، كوضع مزيج من الجير والماء داخل انفه ،وقد توضع حشرة من الحشرات العاضة في الأماكن الحساسة من جسمه، او يربط إلى طاولة مغطاة بأغصان من نبات ملئ بالشوك ،وقد توضع قطع صغيرة من الخشب بين الأصابع ثم تربط هذه الأصابع بعضها إلى بعض ببطء شديد.

وفي بعض الأحيان يكتفي المعذبون بحبس المتهم حبساً إنفرادايا في زنزانة تحت الأرض وفي غرفة حالكة الظلام ،ويداه مربوطتان بقوة خلف ظهره ، إلى حد يشعر معها المحبوس وكأنه ينساب من أظافره ،ولفترات طويلة قد تمتد في بعض الأحيان إلى ثلاثة أشهر ، فيضطر الواحد إلى الجلوس على برازه ،ولا يستطيع النوم على ظهره في الأرض من البرد القارص ،ولهذا الوضع الذي لايسمح بالحركة ولا التمدد توفي في باريس وحدها 36 متهماً ،ومات منهم 25 في مدينة ليون،وليس هناك أحصاء لمن مات منهم في باقي السجون.

أما التعذيب بالنار فأكثر صوره شهرة هو ما يعرف بالكرسي الأسباني المصنوع من الحديد الصلب ،فيجلس فيه المتهم مع رباطات توضع حول عنقه وذراعيه وأعلى ساقيه ،ومع ربط قدميه بسلاسل حديدية ،بعد أن توضع مجمرة (كانون) ملتهبة قرب قدمي المتهم أو تحت المقعد الذي يجلس فيه ،ليصل تاثير النار إلى كل أجزاء جسده تدريجياً.

وفي بعض الحالات يتم تسخين قضيب حديدي حتى يصبح أحمر ملتهباً ،ويوضع على القدم اليسرى ،حيث يحترق اللحم تماماً فيغمى على الضحية ،إضافة إلى ذلك فهناك

وسيلة لا تقل عن تلك قسوة وبشاعة ،وهي ربط المتهم إلى دولاب توقد تحته النار، وعند إدارة ذلك الدولاب تصل النار المشتعلة إلى مختلف أنحاء جسمه ،بدءاً من أخمص قدميه وصولاً إلى اعضاءه التناسلية ،بينما يعمل مساعد الجلاد على إبقاء النار مشتعلة طول القوت

كما استخدم الماء أيضاً للتغلب على مقاومة المتهم، حين يجبر على إبتلاع كميات كبيرة من الماء ، ثم يوضع في حوض خشبي له غطاء يضغط بشدة على رأس الضحية القابع في الحوض ويسند ظهره في الحوض إلى عارضة خشبية ، فيتم ضغط الظهر حتى ينكسر عموده الفقري.

أما أكثر الأساليب فاعلية ولا تسبب في تشويه أو إيذاء الجسم، فهي منع المتهم تماماً من النوم بواسطة حراسه، ، حيث يتم هزه أو وخزه من حين لآخر ، أو إجباره على المشي في السلم صعوداً وهبوطاً مدة يومين وليليتين أو اكثر من ذلك ،وهناك طريقة أخرى لمنع الضحية من النوم ،وذلك بواسطة الشد عليه مرة بعد أخرى لابقاءه صاحياً دون نوم.

وهذه الطريقة ، أي حرمانه من النوم بإعتراف المحققين أنفسهم من بين كل الوسائل الأكثر فاعلية ، وذات نتائج سريعة ،لا تستغرق وقتاً طويلاً وكل من تعرض للعذاب بواسطتها لم يقو على التحمل ،فأعترف بما يراد منه.

فإذا أضيف إليها منعه من الطعام ،أو تقديم كمية ضئيلة للغاية من الأكل ،بحيث لا يفتر شعوره بالجوع لحظة واحدة ، أو حتى منعه من الطعام نهائياً ،فضلاً عن وضعه في زنزانة سيئة التهوية وغير ملائمة ،مما يتسبب في تشويه صورة المكان في ذهنه ،بعدها يتم أقناعه بأن يقول ماهو مطلوب منه.

وعلى أي حال فقد طبقت محاكم التفتيش وعلى امتداد ثلاثة قرون كل اشكال التعذيب ،مستخدمة كل الأدوات المتاحة ،حتى تلك التي توصف بأنها عار على العقل والدين، لحمل أعداء الكنيسة الكاثوليكية على الإعتراف بالتهم الموجهة إليهم، بأعتباره عقاباً لهم أكثر من كونه ألماً وعذاباً لأبدانهم وأعتقاداً منهم بأن تلك المعاناة هي التي تطهرهم من خطاياهم ،ولأجل ذلك كان كثيراً من المتهمين ومع أعترافهم بكل ما ينسب إليهم ، أو بما طلب منهم الاعتراف ،يخضعون مرة أخرى إلى دورة جديدة من التعذيب قبل إحالتهم للمحاكمة.

وعندما تتم إدانة المتهم تصادر أملاكه بحجة أعتمدها البابا انوسنت الثالث ومفادها أن الشريعة الألهية كثيراً ما تحاسب الأبناء على خطايا الأباء ، ويختلف توزيعها من دولة إلى أخرى ،ففي أسبانيا كانت توزع بين أعضاء محكمة التفتيش ،والأشخاص الذين وجهوا الاتهام للمدان ،وفي إيطاليا تعطى ثلث هذه الأملاك للذي يبلغ عن الضال ،وفي فرنسا كانت تذهب للملك.

وفي بعض الدول تصادر ويذهب جزء منها لحلكم الاقليم الزمني ،وجزء منها للكنيسة ،وفي حالة محاكمة الموتى كانت سلطات محاكم التفتيش تستولى على أملاك الأبرياء من الورثة بحجة أن من أورثوهم اياها ماتوا وهم ضالون.

وجرت العادة ان ينفذ من حكم عليهم بالإحراق في حفل رهيب ،يقام في الميادين العامة للمدن الكبرى ،وينظم لهذه المحارق أحتفالات خاصة تشهدها الجماهير والقساوسة والملوك أحياناً ،وكانت هذه الاحتفالات أشبه بالأعياد يلبسون لها الثياب الجديدة ، ويفرحون فيها ويبتهجون ،ولا يجدون في مناظرها الأليمة ما يدعو إلى الضيق والأشمئزاز.

هذا كله عن الذين أدينوا ، اما التائبون ،فكانوا يضعون على منصة وسط الكنيسة ، ثم يقرأ أعترافهم ،ويطلب منهم التأكيد على الاعتراف ،وان ينطقوا بصيغة خاصة يعلنون فيها أقلاعهم عن الضلال ،ثم يقوم المحقق الذي يرأس الاحتفال فيعفي عن التائب من الحرمان،ثم يعلن بعدها سائر الأحكام الأخرى.

ليس من الميسور تقديم أعطاء إحصاء دقيق بعدد الذين راحوا ضحية محاكم التفتيش ،ولا الذين قضوا بالمحارق ،ولكن يكفي إيراد بعض الأرقام عن تلك الفترة للدلالة فقط على وحشية النصارى واضطهادهم وعدوانيتهم فيما بينهم ، وهي وحشية وعدوانية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

فعلى سبيل المثال ذبح عام 1209 في مدينة لبرية من الكاثار عدد يقدر بثلاثين ألفاً ،وأحرق منهم في مدينة لانور أربعمائة مدان دفعة واحدة،ومنح البابا اينوستيوس الثالث غفراناً لكل الذين شاركوا في هذه المذابح.

وفي شهر فبراير من عام 1568م أصدر ديوان التفتيش قراراً بإدانة جميع سكان الأراضي الواطئة،وحكم عليهم بالإعدام بتهمة الهرطقة ،وبعد عشرة أيام أعلن الملك فيليب الثاني صحة الحكم وأمر بتنفيذه في الحال ،فسيق إلى المقصلة مئات الألوف من الرجال والنساء والأطفال.

وفي اسبانيا وحدها ثم إحراق واحد وثلاثين الفاً من المدانين ما بين عام 1481و 1517م ،بينما أحرقت جثث ثمانية ألف وسبعمائة سجين (8700) تم خنقهم حتى الموت ، يضاف إلى ذلك إدانة سبعة عشرة سجيناً والحكم عليهم بعقوبات أخرى غير الموت حرقاً وإعداماً.

وهناك رواية تذهب إلى أنه تم إدانة ما مجموعة ثلاثة وواحد وأربعين الفاً وخمسمائة وواحد وعشرون(341521) سجيناً والحكم عليهم بالموت في الفترة ما بين عام 1481 و1808 في أوربا وحدها، وربما تدل هذه أعداد على اقل تقدير بأن الأعداد الذين لقوا حتفهم لم تكن قط عادية لا مألوفة وقد ادت أخبار عمليات القتل المبالغ فيها وبشاعة التعذيب الذي يتعرض له المتهمون إلى إشاعة جواً من الخوف والذعر في

المجتمعات الأوربية ،هجر من جراءها الناس القرى والمدن تاركين وراءهم قراهم ومزراعهم فارغة حتى قال أحد قضاة محكمة التفتيش:

" لم يبق في أيامنا هراطقة أغنياء ، وأنه لمن المؤسف حقاً أن مؤسسة مفيدة مثل مؤسستنا تبقى هكذا غير متأكدة من مستقبلها"

بقيت محاكم التفتيش تؤدي دورها بنشاط وفاعلية في العلم الكاثوليكي حتى القرن الثامن عشر، وظلت في اسبانيا والبرتغال ومستعمراتها حية إلى ان ألغيت في أسبانيا عام 1808 وأعيد العمل بها عام 1814م وتلغى عام 1820 لتعود مرة أخرى عام 1823 إلى أن ألغيت نهائياً عام 1834م.

غير أن الغاؤها النهائي لم يقضي أو يخفف من حدة روح العداوة والبغضاء بينهم،وهي التي أدت إلى ظهورها وسيادتها،ودفعت بها لأن تغرق أوربا في بحر من الدماء وأكداس من رماد المحروقين ،وبحار من دموع الأرامل واليتامى ،وهي وحدها التي تبقى حية متقدة في صدورهم ،وصدق الله القائل:

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.